

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير
والاقتباس والترجمة والنقل محفوظة

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٨هـ - أكتوبر ٢٠٠٧م

عنوان الكتاب	الشيعة والتشيع (شبهات حول الشيعة)
المؤلف	لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية
الناشر	دار الكتاب الصوفى
عنوان الناشر	١١٤ ش مجلس الشعب - السيدة زينب
رقم التليفون	٠٢/٢٣٩٠١٠٣٠
رقم الإيداع	٢٠٠٧/٩٨٢٩م
الترقيم الدولى	٧-٧٥-٥٢٧٣-٩٧٧

سلسلة الفتوحات العزمية

(٣٣)

الشيعة والتشيع فى فكر القادة ورؤية الأمة

شبهات حول الشيعة

الجزء الرابع

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية: كيف يتحد المسلمون؟	٤
الفصل التاسع : الغدير	١٠
عيد الغدير فى التاريخ الإسلامى	٢٦
تواتر حديث الغدير	٣٠
حديث الغدير لا يقبل التأويل	٣٤
الفصل العاشر : العصمة فى النبوة والإمامة	٣٨
نقطة الخلاف فى المدرستين	٤٣
الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء	٦٧
الأدلة النقلية على عصمة الأئمة	٧٥
الفصل الحادى عشر: السجود على التربة الحسينية	١٠٠
النصوص الواردة حول ما يسجد عليه	١٠١
فضيلة التربة الحسينية	١١٥
لماذا الاهتمام بالسجود على التربة الحسينية؟	١٢٠

الافتتاحية

كيف يتوحد المسلمون؟

الحمد لله الذى علا بحوله، ودنا بطوله. ما نح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عزيمة وأزل. أحمدته على عواطف كرمه، وسوايح نعمه. وأؤمن به أولاً بأديا، وأستهديه قريباً هاديا، وأستعينه قادراً قاهراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً.

والصلاة والسلام على الإنسان الأكمل فى صورته البشرية، والنور الأعظم الذى لا يحيط بعظمته إلا أنت فى معناه، خليفتك الحقى الذى سجدت ملائكتك بأمرك لنوره المتألئى فى أبى ميناه سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله صلاة تعاملنا بها بجمالك وكمالك، فى ديننا ودينانا وأخرتنا، ولا تشغلنا بشاغل من شواغل الدنيا والآخرة، ولا بهم من همومهما يا أكرم الأكرمين.

وبعد:

لقد أحدث نجاح الثورة الإسلامية فى إيران زلزالاً كبيراً فى المنطقة، وأقلق جميع الأنظمة الحاكمة فيها، وبالأخص ما يتصل منها بالقوى الكبرى، وتعتمد عليها

كل الجهات والدوائر الاستعمارية، ومن هذه الأنظمة النظام الوهابي الحاكم على قطر كبير من الأقطار الإسلامية يزخر بأضخم الثروات الطبيعية، ويتمتع بموقع جغرافي خاص.

فعمد الاستعمار البغيض وأذنابه وعملاؤه وفي مقدمتهم دعاة الوهابية إلى الوقوف في وجه الثورة الإسلامية وتيارها بشتى الوسائل من إيجاد القلاقل فى داخلها، وإشعال نيران الحرب فى وجهها، وفرض الحصار الاقتصادى عليها، ولما فشلت جميع هذه المخططات المناهضة للثورة عمدوا إلى تشويه ثقافة الثورة ومسح مفاهيمها ورميها بأكاذيب ونسب مفتعلة لمنع الناس من اتباع نهجها، والافتداء بها، وبقائدها. وقد تمثل هذا المخطط العدوانى على ثقافة الثورة الإسلامية فى أمور:

1- تحريك إذاعات وصحف مختلفة فى شتى أقطار العالم للتحدث ضد الثورة، والتشويش عليها، وتشويه ثقافتها الواقعية.

2- طبع رسائل وكتب كثيرة جداً حول ثقافة الثورة بأيدى رجال وكتاب ماجورين لا يهمهم إلا علفهم، وإلا مناصبهم الدنيوية.

فقد قاموا بكل ما يملكون من القوى، وبكل ما تقدمه الوهابية من العدة بتشويه ثقافة الثورة بين المسلمين،

والمساكين فقراء فى كل شئ حتى فى ما يدعونه من المعرفة بمذهب الشيعة الإمامية، فجعلوا يخلطون ويخبطون، ولا يميزون بين الأصل والفرع، ولا بين العقيدة والرواية، ويستدلون بالرواية على كونها مذهب الشيعة.

أضف إلى ذلك كثيراً من أكاذيبهم وافتعالاتهم واستنتاجاتهم الزائفة.

3- نشر المذهب الوهابي بين الشباب فى المنطقة بأساليب مختلفة، مصرحين بأنهم هم المسلمون الموحدون العاملون بالكتاب والسنة، وغيرهم بعداء عن ذلك.

والطريقة العزمية تقترح على علماء الإسلام المتواجدين فى جميع الآفاق والأقطار أولاً، وعلى كتاب الوهابية ثانياً القيام بعقد مؤتمر عالمي إسلامي يضم علماء المسلمين من كافة الطوائف الإسلامية لدراسة هذه المسائل على ضوء الكتاب والسنة، ونشر نتائج ذلك المؤتمر فى الملأ الإسلامى، حتى يتبين الحق بأجلى مظاهره، ويتبع، والحق أحق أن يتبع، والله هو الموفق والمعين.

وحتى انعقاد هذا المؤتمر فقد رأينا أن من المناسب بيان أن ما بين السنة والشيعة من خلافات لا تتجاوز الخلافات الموجودة بين المذاهب السنية بعضها بعضاً، وأن الخلاف الأساس بينهما تاريخي سياسى، بل إن

الاختلافات بين السنة والشيعة أقل من الاختلافات التي بين المذاهب السنية نفسها في كثير من المسائل، وكلها اختلافات فقهية لا تمس جوهر الدين، وهو ما يميز المذاهب بعضها عن بعض، أو مبنية على مفاهيم خاطئة وحمل الألفاظ على غير معانيها الاصطلاحية، وإلقاء الضوء على المسائل التي يدور الجدل بشأنها وإزالة سوء الفهم.

وإن كان من الطبيعي أننا سنطرح وجهة النظر الشيعية ووجهة نظر السنة في المسائل المعروضة وأدلتهم فيها، إلا أننا لا نقصد بهذا نقداً أو رداً على أحد، ولا يعنى كذلك أننا نبتل ما ذهب إليه المذاهب، أو ندعى أى احتكار للحقيقة، ففي كل مسألة معروضة كتبت آلاف الكتب والرسائل على مدى القرون من كل فريق، وكل يحاول إثبات أن ما عليه هو الحق والصواب وما لدى الآخر هو الخطأ والباطل. حتى باتت تلك المحاولات عقيمة، توسع الشقاق وتلحق الضرر بدلاً من الخير، ودعوة التقريب دالة على ذلك فهي لا تسعى لدمج المذاهب أو جعل الشيعي سنياً أو السني شيعياً.. وهكذا. فقط الهدف هو أن يعرف كل فريق ما لدى الآخر، ويعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه.

لذلك فقد رأت لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية أن تحدد هذه المسائل، ثم تقوم بعرض وجهة

النظر الشيعية بحياد تام، مدعمة بمقارنات مع وجهة نظر أهل السنة، بقصد تقريب الخلاف بين الفريقين العظيمين لتوحيد الكلمة أمام الأجنبي المستعبد، ولتفويت الفرصة على عملائه الوهابيين ومرترقتهم الذين يسمون أنفسهم بـ (المفكرين الإسلاميين)، وهم دعاة على أبواب جهنم للفتنة والتكفير.

وقد بدأت هذه السلسلة من (شبهات حول الشيعة) فى الجزء الأول بنقطة جوهرية فى التمييز بين الشيعة الإمامية وغيرهم، وهى الخلاف حول الخلافة من حيث إنها نص أو شورى.. والشبهة الثانية: هى شبهة مصحف الإمام على عليه السلام.

وفى الجزء (الثانى) قمنا بعرض شبهة ثالثة: وهى شبهة تأسيس عبد الله بن سبأ الأسطورة أو الخرافة لمذهب الشيعة.. والشبهة الرابعة: هى شبهة الغسل أم المسح على الأرجل.

وفى الجزء (الثالث) قمنا بعرض الشبهة الخامسة: وهى النقية فى الشريعة الإسلامية.. والشبهة السادسة: هى الجمع بين الصلاتين.. والشبهة السابعة: هى نظرية عدالة الصحابة رضي الله عنهم.. والشبهة الثامنة: هى البكاء على موتى المؤمنين.

وفى هذا الجزء (الرابع) سنقوم بعرض الشبهة التاسعة: وهى الغدير.. والشبهة العاشرة: وهى العصمة..

الفصل التاسع

الغدير

تهديد:

الإسلام دينٌ عالمي، وشريعة خاتمة تتضمن كل ما تحتاجه البشرية في الحياة. وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية من شؤون النبي الأكرم ﷺ مادام حياً ولا يمكن للشريعة الخالدة أن تهمل أمر القيادة العليا للأمة بعد النبي ﷺ، وتوكل هذا الأمر إلى الصدق والأهواء والرغبات، أو إلى الاجتهادات الشخصية للصحابة الذين تختلف آراؤهم واجتهاداتهم واتجاهاتهم حيث ينتهي الأمر حينئذ بلا ريب إلى الاختلاف والتشتت وانهيار الدولة الإسلامية بشكل عام.

فلا يمكن للرسول الخاتم لمسيرة المرسلين ﷺ وللشريعة الإسلامية الخالدة أن تهمل هذا الأمر الخطير. ومن هنا كان التنصيب من سيد المرسلين ﷺ على من يتحمل مسئولية الإمامة من بعده أمراً طبيعياً و لازماً ومتوقفاً للمسلمين جميعاً.

فمن هذا الذي نصّ الرسول ﷺ على أنه الإمام للأمة الإسلامية من بعده؟ ومتى نصّ الرسول ﷺ على ذلك؟

والشبهة الحادية عشرة: وهى السجود على التربة الحسينية.

والواقع أن عنوان الكتاب (شبهات حول الشيعة) قد يوحي بأن الهدف من هذا الكتاب هو محاولة تغليب مذهب على آخر.. وهذا غير مقصود ولا مطلوب لأنه لابد من احترام استقلالية المذاهب وطبيعتها ومواقفها.. لكن المطلوب أن لا تكون عملية الاتباع للمذاهب قائمة على التعصب تجاه المذاهب الأخرى.. أو الجهل بها، أو التهجم عليها.. إنما يظل الأمر فى إطار تعدد الآراء ووجهات النظر دون الإساءة لعلاقة الأخوة والوحدة بين المسلمين.

هذه صرخة لبعث أمة، من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، لتوحيد صفوفها، حتى تستعيد مجد سلفها الصالح.. فنسأل الله تعالى أن يجمع أمرنا، ويهدى ضالنا، ويوفقنا لما يحب ويرضى.

لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية

وكيف تم التنصيب منه؟

إن أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم يعتقدون بأن القيادة العليا للأمة الإسلامية، وخلافة الرسول ﷺ منصب ربّاني ينصّ عليه الرسول ﷺ بأمر من الله تعالى، ولم يتركه الله ورسوله إلى الانتخاب الشعبي والرأى العام مادام الرسول القائد وخليفته يحكمان الشعب باسم الله تعالى وباسم دينه القويم..

وقد اختار الله ورسوله أفضل أفراد الأمة بعد الرسول ﷺ ونصّ على إمامته وقيادته للأمة من بعده، منذ بدايات الدعوة الإسلامية، وظل يواصل طرحها ويمهّد لها ولطرحها العام خلال العهدين المكي والمدني بدءاً من يوم الإنذار وإلى يوم رجوعه من حجة الوداع، بل وبشكل خاص في الثامن عشر من ذي الحجة سنة (١٠) هجرية، بعد إنذار إلهي صريح وفيما بعد ذلك وحتى في يوم ارتحاله ﷺ وآله.

بينما ترى مدرسة أهل السنة أنّ الخلافة لم تكن منصباً ربانياً ولا حاجة للتنصيب فيها، بل يمكن أن تقرر من قبل المسلمين حتى عدد قليل منهم لتكون الخلافة لهذا الشخص أو ذلك.

وقد حاول البعض أن ينظر لهذا الأمر المنسوب إلى النبي ﷺ وتوجيهه بأدلة تنتهي في أحسن تقديراتها إلى سيرة بعض الصحابة دون بعض، واعتبارها حجة على

سائر المسلمين.

إن كتب الحديث والتاريخ والسيرة التي كتبت في نهايات العصر الأموي وبدايات العصر العباسي لا يتوقع الباحث من كتابها أن يلتزموا ببيان كل حقائق التاريخ الإسلامي لاسيما إذا كانت بعض الحقائق لا تتسجم مع هوى الحكام أو التيار الحاكم في البلاد. فإذا انفرد مصدر أو مصدران عن سائر المصادر ببيان حدث تاريخي مخالف للتيار الحاكم في البلاد كان ذلك أمراً مهماً وملفتاً للنظر ولا ينبغي إهماله بل لا بد من الاعتناء به.

ومن هنا يلزم الباحث عن الحقيقة أن يدرس القضايا الخطيرة في تلك الظروف في ضوء منهج علمي يعتمد على دراسة طبيعة ظروف عصر الرسالة، وأهم حوادث الأيام الأخيرة من حياة الرسول الأعظم ﷺ وآله وتقييمها بشكل معقول.

إنّ الأوضاع السياسية داخل الدولة الإسلامية وخارجها قبيل وفاة الرسول ﷺ وآله كانت تتطلب أن يعين النبي ﷺ وآله بأمر من الله تعالى خليفة له من بعده؛ إذ المنافقون وأهل الكتاب في داخل أراضى الدولة الإسلامية من جهة، والدولة البيزنطية وسائر القوى المشتركة خارج الدولة الإسلامية من جهة أخرى كانوا يشكلون عدة مراكز للخطر الداهم ضد المسلمين.

إنّ هذا الوضع الاجتماعي والسياسي يفيد: أنّه كان

البيت (عليهم السلام) وآخرين ممن لم يبيع للحكام دينه رغم كل الإغراءات أو التهديدات التي ينتهجها الحكام عادة لإخضاع الشعوب.

النص الصريح بتعيين الإمام:

وإليك بيان نماذج من إصراره على النصّ الصريح بتعيين الإمام من بعده منذ الأيام الأولى وحتى الأيام الأخيرة:

قال الطبري: حدثنا ابن حميد: قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن حارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، عن عبد الله بن عباس، عن عليّ بن أبي طالب، قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: يا عليّ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعرفت أنني متى أبادهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت عليه حتى جاءني جبرائيل فقال: يا محمد إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملاً لنا عساً من لبن؛ ثم اجمع لي بنى عبد المطلب حتى أكلهم، وأبلغهم ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به. ثم دعوتهم له؛ وهم يومئذ أربعون رجلاً،

ينبغي لرسول الله ﷺ وآله أن يمنع من ظهور أي اختلاف وانشقاق في المجتمع من بعده، وأن يضمن استمرار وبقاء الوحدة الإسلامية وذلك، بإيجاد حصن قوى متين حول تلك الأمة، من خلال تعيين قائد كفء لها ليمنعها من التشتت والفرقة واختلاف الكلمة وتنازع الأهواء.

فإن تحصين الأمة، وصيانتها من الحوادث المشئومة وعدم السماح لمن فقدوا الكفاءة ليطالب كل فريق بالزعامة لنفسه، وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة والحكم وقيادة الأمة سياسياً لم يكن ليتحقق إلا بتعيين قائد كفء للأمة من قبل مكوّن الأمة وربّانها وقائدها الأول، وعدم ترك الأمور للصدف والأهواء.

إن هذه المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية (ضرورة التنصيب على الإمام بعد رسول الله) وتحققها وعمل الرسول ﷺ بها. ومن هنا نعرف السرّ في طرح رسول الإسلام مسألة الخلافة في الأيام الأولى من ميلاد الرسالة الإسلامية، ولم يكن قد انضوى تحت راية رسالته سوى عدد قليل جداً ممن أعلن إسلامه وآمن برسالة ربه. كما نعرف السرّ في مواصلة طرحها من قبله ﷺ والتذكير بها طوال حياته وحتى الساعات الأخيرة منها.

نعم عين الرسول ﷺ خليفة من بعده ونصّ عليه بالنص القاطع الواضح الصريح في بدء دعوته وفي أثنائها، ثم في أخريات أيام حياته أيضاً. هذا هو رأى أهل

يزيدون رجلاً أو ينقصونه؛ فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعبّاس وأبو لهب.

فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجنّنت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ حذيةً من اللحم، فشقّها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحفة. ثم قال: خذوا باسم الله، فأكل القوم حتى مالهم بشيء حاجة وما أرى إلا موضع أيديهم، وأيم الله الذي نفس على بيده؛ وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجمعهم. ثم قال: اسق القوم، فجنّنتهم بذلك العس، فشرّبوا منه حتى روّوا منه جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لهّد ما سحركم صاحبكم! فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فقال:

الغد يا عليّ إن هذا الرجل سيقتني إلى ما قد سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت، ثم اجمعهم إليّ.

قال: ففعلت، ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى مالهم بشيء حاجة. ثم قال: اسقهم، فجنّنتهم بذلك العس، فشرّبوا حتى روّوا منه جميعاً، ثم تكلم رسول الله ﷺ وآله.

فقال: يا بني عبد المطلب؛ إني والله ما أعلم شاباً في

العرب جاء قومه بأفضل مما جنّنتكم به؛ إني قد جنّنتكم بخير الدنّيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيتكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: وإني لأحدثهم سنناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً؛ أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه.

فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١).

وقد عرف هذا الحديث عند المفسرين والمحدثين: — (حديث يوم الدار، وحديث بدء الدعوة)^(٢).

(١) تاريخ الطبرى ١: ٥٤٢-٥٤٣ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الكامل لابن الأثير ٢: ٤١-٤٢ طبعة دار الكتاب الغربى، بيروت.

(٢) راجع جامع البيان للطبرى ١٩: ١٤٩، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، وتفسير ابن كثير ٣: ٣٦٤، ط دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣: ٥٣، ط دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٨هـ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ١٣: ٢١١، دار إحياء الكتب العربية.

على أن رسول الله لم يكتف بالنص على خليفته فى بدء رسالته، وإنما صرّح فى مواطن مختلفة ومناسبات عديدة وأماكن شتى، بأنّ الخليفة من بعده هو على بن أبى طالب عليه السلام. وقد كان أبرزها يوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة (١٠) هجرية، الذى عرف فيما بعد بيوم الغدير، أو يوم غدير خم. وإليك بيان هذا الحدث التاريخي العظيم والنصّ البليغ من رسول الله صلى الله عليه وآله بإيجاز ضمن بحوث أربعة:

البحث الأول

واقعة الغدير

أجمع رسول الله الخروج إلى الحجّ فى سنة عشر من مهاجرة، وأذن فى الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتون به فى حجّته تلك التى يطلق عليها حجّة الوداع، وحجّة الإسلام، وحجّة البلاغ، وحجّة الكمال، وحجّة التمام^(١)، ولم يحجّ غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله.

(١) الغدير للأمينى ١: ٩، إنّ الوجه فى تسمية حجّة الوداع بالبلاغ هو نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة:

فخرج صلى الله عليه وآله من المدينة مغتسلاً متدهنًا مترجلاً متجرداً فى ثوبين صحاريين^(١): إزار، ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليالٍ أو ست بقين من ذى القعدة، وأخرج معه نساءه كلّهنّ فى الهودج، وسار معه أهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء^(٢) الناس^(٣).

وعند خروجه صلى الله عليه وآله أصاب الناس بالمدينة جدري - بضم الجيم وفتح الدال - أو حصبة منعت كثيراً من الناس من الحجّ معه صلى الله عليه وآله، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد يقال: خرج معه تسعون ألفاً، ويقال: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل: مائة ألف وعشرون ألفاً،

(٦٧)، كما أنّ الوجه فى تسميتها بالتمام والكمال هو نزول قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٣).

(١) صحار: مدينة عمان أو قصبه عمان ممّا يلى الجبل، وتوأم قصبته ممّا يلى الساحل، معجم البلدان ٣: ٣٩٣.

(٢) أفناء: واحد فنو أى أخلاط، ورجل من أفناء القبائل أى لا يدري من أى قبيلة هو.

(٣) الطبقات لابن سعد ٣: ٢٢٥ و ٢: ١٧٣، إمتاع المقرئى: ٥١٠، إرشاد السارى ٦: ٤٢٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٨، ق ٢، تاريخ يعقوبى ٢: ١٠٩.

يوم الثلاثاء بالعرج^(١) واحتجم بلحى جمل^(٢) - وهو عقبة الجحفة- ونزل السقيا^(٣) يوم الأربعاء، وأصبح بالأبواء^(٤) وصلى هناك، ثم راح من الأبواء ونزل يوم الجمعة الجحفة، ومنها إلى قديد^(٥). وسبّت فيه، وكان يوم الأحد بعسفان^(٦) ثم سار، فلما كان بالغميم^(٧) اعترض المشاة، فصفوا صفوفًا، فشكوا إليه المشى، فقال: استعينوا بالنسلان - مشى سريع دون العدو - ففعلوا فوجدوا لذلك

(١) العرج: قرية في وادٍ من نواحي الطائف، بينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلًا. معجم البلدان ٤: ٩٨.

(٢) لحى جمل: هي عقبة الجحفة على سبعة أميال من السقيا. معجم البلدان ٥: ١٥.

(٣) السقيا: قرية جامعة من عمل الفرع، بينهما ممًا يلى الجحفة تسعة عشر ميلًا. معجم البلدان ٣: ٢٢٨.

(٤) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة ممًا يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا. معجم البلدان ١: ٧٩.

(٥) قديد: اسم موضع قرب مكة. معجم البلدان ٤: ٣١٣.

(٦) عسفان: قال السكري: عسفان على مرحلتين من مكة على طريق المدينة والجحفة على ثلاث مراحل، معجم البلدان ٤: ١٢٢.

(٧) الغميم: قال نصر: الغميم موضع قرب المدينة بين رابغ والجحفة. معجم البلدان ٤: ٢١٤.

وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، ويقال: أكثر من ذلك، وهذه عدّة من خرج معه، وأمّا الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكة، والذين أتوا من اليمن مع عليّ أمير المؤمنين وأبى موسى^(١).

أصبح ﷺ يوم الأحد بيلملم^(٢)، ثم راح فتعشّى بشرف السيّالة، وصلى هناك المغرب والعشاء، ثم صلى الصبح بعرق الظبية^(٣)، ثم نزل الروحاء، ثم سار من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف^(٤)، وصلى المغرب والعشاء بالمتعشى وتعشّى به، وصلى الصبح بالأثاية^(٥)، وأصبح

(١) السيرة الحلبية ٣: ٢٨٣ (٣: ٢٥٧)، سيرة أحمد زيني دحلان ٣: ٣ (٢: ١٤٣)، تاريخ الخلفاء لابن الجوزي في الجزء الرابع، تذكره خواص الأمة ١١٨ (٣٠)، دائرة المعارف لفريد وجدى ٣: ٥٤٢.

(٢) يلملم: هو ميقات أهل اليمن للإحرام بالحج، وهو جبل من جبال تهامة جنوب مكة، معجم البلدان ٥: ٤٤١.

(٣) عرق الظبية: موضع على ثلاثة أميال من الروحاء، وبه مسجد رسول الله ﷺ، معجم البلدان ٣: ٥٨.

(٤) المنصرف: موضع بين مكة ويدر بينهما أربعة برد. معجم البلدان ٥: ٢١١.

(٥) الأثاية: هو موضع في طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخًا. معجم البلدان ١: ٩٠.

راحة، وكان يوم الإثنين بمرّ الظهران، فلم يبرح حتى أمسى، وغربت له الشمس بسرف^(١) فلم يصل المغرب حتى دخل مكة، ولما انتهى إلى الثنيتين^(٢) بات بينهما، فدخل مكة نهار الثلاثاء^(٣).

فلما قضى مناسكته، وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع المذكورة، وصل إلى غدير خم من الجحفة التي تنتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك يوم الخميس^(٤) الثامن عشر من ذي الحجة، نزل إليه جبرائيل الأمين عن الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، وأمره أن يقيم علياً علماً للناس، ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كل أحد، وكان أوائل القوم قريب من الجحفة، فأمر رسول الله أن يردّ من تقدم منهم، ويحبس

(١) سرف: موضع من مكة على عشرة أميال، وقيل: أقل وأكثر. معجم البلدان ٣: ٢١٢.

(٢) الثنيتان: مثني الثنية، وهي طريق العقبة، أو العقبة، والثنية: الطريقة في الجبل كالنقب.

(٣) الإمتاع للمقرئ: ٥١٣-٥١٧.

(٤) هو المنصوص عليه في لفظ البراء بن عازب، وبعض آخر من رواة حديث الغدير.

من تأخر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سمّرات^(١) خمس متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهنّ أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقمّ ما تحتهنّ، حتى إذا نودي بالصلاة - صلاة الظهر - عمد إليهنّ، فصلّى بالناس تحتهنّ، وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه، وبعضه تحت قدميه، من شدة الرمضاء، وظلّل لرسول الله بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف ﷺ من صلاته، قام خطيباً وسط القوم^(٢) على أفتاب الإبل^(٣)، وأسمع الجميع، رافعاً عقيرته فقال: (الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله).

أما بعد: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير: أنه لم يعمر نبيّ إلا مثل نصف عمر الذي قبله. وإني أوشك أن

(١) سمّرات: جمع سمرة: شجرة الطلح.

(٢) جاء في لفظ الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٦، وتاريخ آل زرارة لابن غالب الرازي ٢: ٨٤.

(٣) ثمار القلوب: ٥١١ (ص ٦٦٣٦ رقم ١٠٦٨)، المستدرک للحاكم ٣: ٥٣٣.

أدعى فأجيب، وإني مسؤول، وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟).

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجاهدت، فجزاك الله خيراً. قال: (أستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟)

قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد، ثم قال: أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

قال: فإنّي فرط^(١) على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضة ما بين صنعاء وبصرى^(٢)، فيه أقداح عدد النجوم من فضة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقيلين^(٣).

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل

(١) الفرط: المتقدم قومه إلى الماء، راجع غريب الحديث لابن سلام ١: ٤٥.

(٢) صنعاء: عاصمة اليمن اليوم، وبصرى: قسبة كورة حوران من أعمال دمشق.

(٣) الثقل - بفتح المثناة والمثناة - كل شيء خطير نفيس. راجع تاج العروس للزبيدي ٧: ٢٤٥.

الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فسألته ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلّكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلّكوا.

ثم أخذ بيد عليّ ورفعها حتى رؤى بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس من أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاة فعليّ مولاة، يقولها ثلاث مرات - وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة أربع مرات - ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب. ثم لم يفترقوا حتى نزل أمين وحى الله بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٣)^(١). فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتى، والولاية لعليّ من بعدى).

ثم طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين - صلوات الله

(١) عند أغلب أهل السنة أنها نزلت يوم عرفة في حجة الوداع.

البحث الثاني

عيد الغدير في التاريخ الإسلامي

لقد تعلقت المشيئة الربانية بأن تبقى الغدير التاريخية في جميع القرون والعصور كتاريخ حيّ يجتذب القلوب والأفئدة، ويكتب عنه الكتاب الإسلاميون في كل عصر وزمان، ويتحدثون حوله في مؤلفاتهم المتنوعة، في مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد، كما يتحدث حوله الخطباء في مجالس الوعظ والشعراء في قصائدهم، ويعتبرونها من فضائل الإمام علي عليه السلام التي لا يتطرق إليها أي شك أو ريب.

وقلما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامة، وفي التاريخ الإسلامي والأمة الإسلامية خاصة، بمثل ما حظيت به واقعة الغدير، وقلما استقطبت حادثة اهتمام الفئات المختلفة من المحدثين والمفسرين والكلاميين والفلاسفة، والشعراء والأدباء والكتاب والخطباء، وقلما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إن من أسباب خلود هذه الواقعة الكبرى ودوام هذا الحدث العظيم هو: نزول آيتين من آيات القرآن الكريم

عليه - وممنّ هنا في مقدّمة الصحابة الشيخان: أبو بكر وعمر رضی الله عنهما، كلّ يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمّيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. قال ابن عباس: وجبت - والله - في أعناق القوم. فقال حسان: ائذن لي يا رسول الله أن أقول في عليّ أبياتاً تسمعهنّ، فقال: (قل على بركة الله).

فقام حسّان، فقال: يا معشر مشيخة قريش أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية، ثم قال: يناديهم يوم الغدير نبيهم

بخم فاسمع بالرسول مناديا

هذا مجمل القول في واقعة الغدير، وقد أصفقت الأمة على هذا، وليست في العالم كله - وعلى مستوى البسيط^(١) - واقعة إسلامية غديرية غيرها، ولو أطلق يومه فلا ينصرف إلا إليه، وإن قيل محله فهو هذا المحل المعروف على أمم^(٢) من الجحفة، ولم يعرف من البحّثة والمنقبين سواه^(٣).

(١) البسيط والبسيطة: الأرض العربية والمكان الواسع.

(٢) الأمم: القُرب.

(٣) أنظر الغدير ١: ٩ - ١٢.

فيها^(١)، فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يُتلى آناء الليل وأطراف النهار، فسوف تبقى هذه الحادثة حية في العقول والقلوب.

إنّ أبناء المجتمع الإسلامي في العصور السالفة، لاسيّما أتباع أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً من الأعياد الإسلامية الكبرى.

وكانت تسميته بيوم عيد الغدير معروفة بين المسلمين، كما كانت تحظى بشهرة كبيرة، حتى أن ابن خلكان قال: عن (المستعلى بن المستنصر): فبويع في يوم غدير خمّ وهو الثامن من شهر ذي الحجة سنة (٤٨٧هـ)^(٢).

وفي ترجمة المستنصر بالله العبيدي قال: وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلون من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو غدير خم^(٣). وقد عدّه أبو ریحان البيروني في كتابه (الأثار الباقية)

مما استعمله أهل الإسلام من الأعياد^(١).

وقد روى عن أبي هريرة أنه قال: من صام يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة؛ كتب الله له صيام ستين شهراً (أو سنة)، وهو يوم غدير خم؛ لما أخذ النبي ﷺ بيد عليّ ﷺ فقال: (من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره)، فقال عمر ابن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كل مسلم^(٢). والثعالبي أيضاً قد اعتبر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين^(٣).

إنّ عهد هذا العيد الإسلامي وجذوره ترجع إلى يوم الغدير نفسه؛ لأن النبي ﷺ أمر المهاجرين والأنصار بل أمر زوجاته ونساءه في ذلك اليوم بالدخول على عليّ ﷺ وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أول من صافق النبي ﷺ وعليّاً: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ثم باقى المهاجرين والأنصار، ثم باقى الناس^(٤).

(١) ترجمة الأثار الباقية: ٣٩٥، الغدير: ١: ٢٦٧.

(٢) راجع تاريخ دمشق ٢: ٧٥ و ٥٧٥-٥٧٧، وتاريخ بغداد ٨: ٢٩٠.

(٣) ثمار القلوب: ٥١١.

(٤) راجع الغدير ١: ٢٧٠. رواه عن أحمد بن محمد الطبري الشهرير بالخليلى في كتاب مناقب علي بن أبي طالب.

(١) المائدة: ٣ و ٦٧.

(٢) وفيات الأعيان ١: ٦٠.

(٣) المصدر السابق: هذا والصحيح: لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة.

البحث الثالث

تواتر حديث الغدير

أولاً: اعتراف العلماء-على اختلاف مذاهبهم- بتواتر حديث الغدير، منهم:

١- جلال الدين السيوطي الشافعي في (الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة) وفي (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة). ونقل كلام السيوطي في تواتر الحديث: العلامة العزيمي في (شرح الجامع الصغير) ج ٣ ص ٣٦٠.

٢- الملا علي القاري الحنفي في (المراقبة في شرح المشكاة) ج ٥ ص ٥٦٨.

٣- جمال الدين عطاء الله بن فضل الشيرازي في كتاب (الأربعين)- مخطوط-.

٤- المناوي الشافعي في كتاب (التيسير في شرح الجامع الصغير) ج ٢ ص ٤٤٢.

٥- الميرزا مخدوم بن مير عبد الباقي في (النواقض على الروافض).

٦- محمد بن إسماعيل اليماني الصنعاني في كتاب (الروضة الندية).

٧- محمد صدر عالم في كتاب (معارض العلى في

ويكفي في أهمية هذا الحدث التاريخي أن هذه الواقعة التاريخية رواها مائة وعشرة من الصحابة^(١).

على أن هذه العبارة لا تعني أن رواية هذه الواقعة اقتصر على هؤلاء المائة والعشرة من ذلك الحشد الهائل، بل يعني أن هؤلاء جاء ذكرهم في كتب أهل الحديث والتاريخ.

وروى هذا الحديث في القرن الثاني الهجري- وهو عصر التابعين- تسعة وثمانون تابعياً.

وقد بلغ عدد رواة حديث (الغدير) في القرون اللاحقة جمعاً غفيراً من علماء المذاهب الإسلامية المختلفة وصححه جمع كبير منهم واعترفوا بتواتره^(٢) كما سيأتي بيان ذلك.

(١) الغدير ١: ٦١ و ٣١٤.

(٢) قد ألف المؤرخ الإسلامي الكبير أبو جعفر (الطبري) كتاباً في هذا المجال اسماء (الولاية في طرق حديث الغدير) روى فيه هذا الحديث عن النبي بنيف وسبعين سنداً. ولقد روى (ابن عقدة) في رسالة (الولاية) هذا الحديث من مائة وخمس طرق، راجع مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٢: ٢٢٨. وروى أبو بكر محمد بن عمر البغدادي المعروف بالجمعاني هذا الحديث بخمسة وعشرين سنداً.

مناقب المرتضى).

٨- الشيخ عبد الله الشافعي في (الأربعين).

٩- الشيخ ضياء الدين المقبل في كتاب (الأبحاث

المسداة في الفنون المتعددة).

١٠- ابن كثير الدمشقي في تاريخه في ترجمة محمد

ابن جرير الطبري.

١١- أبو عبد الله الحافظ الذهبي، نقل كلامه بتواتر

حديث الغدير ابن كثير في تاريخه ج ٥ ص ٢١٣- ٢١٤.

١٢- الحافظ ابن الجزري، ذكر تواتر الحديث في

كتابه (أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام

٤٨) حيث قال: (هذا حديث حسن من هذا الوجه صحيح

من وجوه كثيرة، تواتر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام،

وهو متواتر أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، رواه الجم الغفير ولا

عبرة بمن حاول تضعيفه ممن لا اطلاع له في هذا

العلم...).

١٣- الشيخ حسام الدين المتقي، ذكر ذلك في كتابه

(مختصر قطف الأزهار المنتثرة).

١٤- ثناء الله باني بني، ذكر تواتر الحديث في

(السيف المسلول).

١٥- محمد مبین اللكهنوي في (وسيلة النجاة في

فضائل السادات ص ١٠٤).

ثانياً: رواية جمع من أكابر المحدثين حديث الغدير

بطرق كثيرة، منهم:

١- رواه أحمد بن حنبل من (٤٠) طريقاً.

٢- وابن جرير الطبري من (٧٢) طريقاً.

٣- والجزري المقرئ من (٨٠) طريقاً.

٤- وابن عقدة من (١٠٥) طريقاً.

٥- وأبو سعيد السجستاني من (١٢٠) طريقاً.

٦- وأبو بكر الجعابي من (١٢٥) طريقاً.

٧- ومحمد اليماني أن له (١٥٠) طريقاً.

٨- أبو العلا العطار الهمداني من (٢٥٠) طريقاً.

٩- وقال الشيخ عبد الله الشافعي في كتابه المناقب

ص ١٠٨ مخطوط: وهذا الخبر- أي حديث الغدير- قد

تجاوز حد التواتر فلا يوجد خبر قط نقل من طرق كهذه

الطرق.

ثالثاً: احتجاج الصحابة والتابعين وتابعيهم بحديث

الغدير، منهم:

١- الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الشورى^(١)،

وأيام عثمان^(٢)، ويوم الرحبة في الكوفة^(٣)، ويوم الجمل^(٤)،

(١) فرائد السمطين للحموي الشافعي الباب الثامن والخمسون : ١ : ٣١٩.

(٢) فرائد السمطين الباب الثامن والخمسون : ١ : ٣١٢.

(٣) المناقب للخوارزمي: ١٥٧.

- ٩- احتجّ به شاب على أبي هريرة في الكوفة^(١).
 ١٠- احتجّ به قيس بن عبادة على معاوية^(٢).
 ١١- احتجّ به عمر بن عبد العزيز^(٣).
 ١٢- احتجّ به المأمون على الفقهاء^(٤).

البحث الرابع

حديث الغدير لا يقبل التأويل

تقول مدرسة أهل البيت: زعم البعض أنّ النبي ﷺ لم يقصد مما قاله في يوم الغدير أن ينصبّ عليّاً وليّاً، بمعنى كونه قائداً للمسلمين وخليفة له من بعده، وإنّما أراد أن يبيّن فضله ومنزلته، فإنّ كلمة الولي تستعمل أيضاً بمعنى الناصر والصديق والمحبوب.

- (١) المناقب للخوارزمي: ٢٠٥.
 (٢) مجمع الزوائد للهيثمى الشافعي ٩: ١٠٥.
 (٣) كتاب سليم بن قيس: س ٣١٣.
 (٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر الشافعي ٤٥: ٣٤٤.
 (٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٥: ٣١٧-٣٢٧، وراجع الغدير للعلامة الأميني ١٠: ٢١٢.

- وفي حديث الركبان في الكوفة^(١)، ويوم صفين^(٢).
 ٢- فاطمة الزهراء (عليها السلام) بنت رسول الله ﷺ وآله^(٣).
 ٣- الإمام الحسن بن علي المجتبي ﷺ سبط الرسول الأكبر ﷺ وآله^(٤).
 ٤- الإمام الحسين بن علي ﷺ الشهيد بكر بلاء سبط الرسول ﷺ وآله^(٥).
 ٥- عبد الله بن جعفر احتجّ به على معاوية^(٦).
 ٦- احتجّ به عمرو بن العاص على معاوية^(٧).
 ٧- احتجّ به عمار بن ياسر يوم صفين^(٨).
 ٨- احتجّ به الأصبغ بن نباته في مجلس معاوية^(٩).

- (١) المصدر السابق: ١٨٢.
 (٢) مسند أحمد ٥: ٤١٩.
 (٣) كتاب سليم بن قيس: ٢٩٥.
 (٤) أسنى المطالب للجزري المقرئ الشافعي: ٤٩.
 (٥) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ٣: ٣٦٩.
 (٦) كتاب سليم بن قيس: ٣٢٠.
 (٧) كتاب سليم بن قيس: ٣٦١.
 (٨) المناقب للخوارزمي الحنفي: ١٩٩.
 (٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨: ٢١.

ولا ضرورة لحملها على الأولوية بالتصرف لتكون
بمعنى القائد والحاكم والمتولى لأمر المسلمين.

ولكن ملاحظة ظروف هذا الحدث التاريخي بفعل
الرسول ﷺ لا تدع مجالاً لهذا التأويل، وتجعله زعماً بلا
دليل؛ فإنّ منع الألوّف المؤلّفة عن المسير وحبسهم فى
رمضاء الهجير، والاهتمام بإرجاع من تقدّم منهم وإلحاق
من تأخّر عنهم، وأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب
عنهم، ونعى نفسه المباركة إليهم، وأخذ الإقرار منهم
بالتوحيد والرسالة والمعاد، وأنّه الأولى بهم من أنفسهم،
إنّما ينسجم كلّ هذا مع قصده ﷺ لبيان أمر مهمّ جداً، فإنّ
كلّ إنسان يفهم أنّه ﷺ من هذا الاستعداد والإعداد إنّما
كان يقصد أمراً مهمّاً فى غاية الأهمية، ويرتبط به مصير
الأمة أيّما ارتباط.

هذا فضلاً عن تشديد الله سبحانه له بأنّه إن لم يبلغ هذا
الأمر المهم فكأنّه لم يبلغ رسالته التى جاهد لها ليل نهار
طيلة ثلاثة وعشرين عاماً..

ويا ترى ما هو الأمر المهم الذى وعده الله بأنّه
يعصمه من الناس حين يبلغه؟

فهل هناك خطر فى تبليغ المفاهيم التى لا ترتبط بأمر

القيادة الخطير حتى يحتاج الرسول ﷺ إلى من يعصمه
من الناس؟

ومن هم الناس الذين يحتاج الرسول ﷺ إلى أن
يعصمه الله تعالى منهم لو بلغ ما أمر به؟

وهكذا نعرف أن أىّ تأويل لهذا الحديث الصريح فى
معناه سخيّف جداً، وإنّما يستهدف قائله الفرار من الحجة
البالغة التى أكّدها الرسول ﷺ بصريح كلامه فى مجال
تعيين القيادة النائية عنه على الأمة المسلمة من بعده، وأنّه
لم يترك أمر الخلافة الخطير ولم يهمل بيان حكم هذا
الموقع السياسى الجليل فى مثل تلك الفرصة التاريخية
التى كانت أمامه يوم الغدير.

والذى يثبت زيف وبطلان هذا التأويل هو فهم
الصحابة الكبار لهذا النصّ- من أمثال أبى بكر وعمر
وحسان بن ثابت وغيرهم ﷺ الذين حضروا هذه الواقعة
التاريخية بأنفسهم- وسمعوا من النبى ﷺ ذلك ووعوه
وفهموا منه أنه كان يعنى القيادة للأمة والتصرف فى
أمرهم لا غير، وقد تعزّر فهمهم هذا بمواقف فعلية من
قبلهم حسب هذا الفهم.

نرجو من المولى سبحانه أن يمنّ علينا جميعاً

الفصل العاشر

العصمة في النبوة والإمامة

خلق الله الإنسان بطريقة يكون مستعداً من خلالها لقبول الحق ونداءاته والتفاعل معها، وهذه الأهلية تساعد على نشوء علاقة مع الغيب، يتقبل بواسطتها الهداية وبالتالي يُؤمن ارتباطه بسبل الهداية المتوفرة.

ومنذ البدء كان الإنسان يسعى بفطرته نحو الكمال المطلوب الذي قُدر أن يتحقق بفعل الإرادة الحرة المودعة فيه، والتي ارتقى بواسطتها على باقى المخلوقات مما أهلته لحمل الأمانة السماوية، ولهذا فهو المخلوق الوحيد الذى تحمّل مسئولية أفعاله حين لا تكون موافقة لخط الهداية والاستقامة فكراً وسلوكاً كما خطتها يد السماء..

ولكن يثور فى المناسبة سؤال مفاده: ما هو السبيل الذى يوفر لنا الحصول على تلك المعارف والعلوم التى تكفل للإنسان بأن يميّز طريق الهداية الحقة ويفرق بين هذا العمل وكونه صالحاً أو غير صالح؟ لتدخل الإرادة فى خطوة لاحقة فتتحرك ما هو نظرى ذهنى إلى واقع عملى مشهود؟

التسليم بوجود عقبات تحول دون الهداية من جهة،

بالاعتصام بحبله والالتفاف حول راية لا إله إلا الله محمّداً رسول الله، متحدين متماسكين كالبنيان المرصوص، ضد كلّ المستعمرين الذين ما زالوا يعيثون فى الأرض فساداً، ويفتح علينا جميعاً أبواب النصر المؤزّر، بإخراج الصهاينة الغاصبين من أراضى الإسلام المقدّسة وتحرير القدس الإسلامية، إنّه ولى النصر...
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين^(١).

(١) راجع الجزء الأول من كتاب (شبهات حول الشيعة) ص ١١٢-١١٤ لحسم الخلاف بين الشيعة والسنة فى مسألة الإمامة والخلافة حتى تتوحد كلمة الأمة الإسلامية، ويعود لها مجدها الذى فقده.

ودور العلوم والمعارف الإلهية والقيم التي تؤدى إلى وعى الإنسان بالهداية من جهة ثانية يدعونا للبحث عن معرفة الطريق الذى يوفر المعارف للإنسان. فالحل يأتي من جهة اللطف الإلهي الذى يقوم بربط الإنسان بالغيب ليقيه مزلق الانحراف والضلالة والشرك - لذا وصف اللطف الإلهي بأنه أشبه بمن دعا شخصاً إلى طعام وهو يعلم أنه لا يجيبه إلا إذا استعمل نوعاً من التأدب، فإذا لم يفعل الإنسان المضيف هذا الأسلوب كان نقضاً لهدفه وغرضه من الدعوى - فتأتى النبوة منه سبحانه تحمل خطابه وتعريف الإنسان معنى العدالة والكمال المنشود.

النسق الإسلامى فى معارفه الربانية لا يقبل التجزئة والتفكيك، فرسله الذين يبلغون عنه أو امره وينقلون للناس صفاته قد تخلقوا بأخلاق الله واتصفوا بالعدل وأنهم صفوة الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١). فالمصطفون هم الذين تحملوا مسئولية البلاغ الإلهي وهم ورثة العلوم الإلهية.

فسنة الله فى الهداية إرسال الرسل الذين هم موضع ثقة الله، فهذا التأسيس القرآنى الكاشف عن الإرادة والاختيار الإلهي فى صفة الرسل، لا تخالفه الرسالة

(١) آل عمران : ٣٣ - ٣٤.

الإسلامية: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾^(١) فخاتم الرسالات والمصدق لها، لا يغش الناس ويغشى عليهم الحقائق الإلهية، فيلبس الحق بالباطل هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو الحريص لأن يطبق خطاب السماء القاضى بأن السلطة العقيدية والقيادة السياسية تمنح لمن اصطفى من خلقه، ولهذا جاء صريح الوحي: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾^(٢).

وهذا التأسيس الثانى قد عمل فيه نبي الإسلام وجسده، فيما كان يخطط لمستقبل الرسالة فى غدٍ خم وغيرها من الأحداث، لتعى الأمة بأن الولاية كالنبوة، إلا أن الإمام لا يوحى إليه: (أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى)^(٣).

فالنبوة كما أرادها تتصف بأمر وشروط، ومنها العصمة، فإذا كانت العصمة شرطاً فى النبوة فهل يا ترى هى شرط فى الإمامة أيضاً، ولماذا؟

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٥ : ١٧٤، مجمع الزوائد ٩ : ١٠٩، فتح البارى لابن حجر ٧ : ٦٠، المصنف للصنعانى ٥ : ٤٠٦، المصنف لابن أبى شيبة ٧ : ٤٩٦.

ثم ما هي حدود العصمة عند النبي أو الإمام، وبالتالي ما هي ضرورتها؟ وهل هناك أدلة نقلية تثبتها في الإمامة بشكل خاص بعد الاتفاق على وجودها في النبي؟ كل هذه الأمور وغيرها سنسلط الضوء عليها في فقرات لاحقة من هذا البحث إن شاء الله.

وقبل الدخول في تفاصيل بحث العصمة نرى من اللازم تحرير محل النزاع في مسألة موقع الإمامة لندرك بعد ذلك أن العصمة وغيرها - عند مدرسة أهل البيت - تدخل كشرط فيها، وبالتالي سيكون الكلام في ضرورتها في النبوة يعنى ضرورتها في الإمامة، وهكذا الحديث في حدودها وفائدتها.

أولاً: العصمة لغة واصطلاحاً

ذكرت للعصمة لغة عدة معاني متقاربة منها:

١- المنع^(١): يقال: عَصَمَهُ الطَعَامُ، أى: منعه من الجوع.

٢- الالتجاء: اعتصم به فلان، أى: التجأ إليه، واستعصم تحرى ما يعصمه^(٢).

٣- العصم: الإمساك والاعتصام والاستمساك، وإن

(١) الصحاح للجوهري ٤: ١٩٨٦.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ٦: ٥٠٥.

العاصم والمعصوم يتلازمان فأيهما حصل حصل معه الآخر^(١).

أما الاصطلاح فقد اختلف المعروفون لها تبعاً للمدارس الكلامية، فعلماء مدرسة أهل البيت قد اشتهروا في تعريفها عند نقطة واحدة وهي أن نفوس المعصومين تأبى الانصراف إلى الذنوب وترفض الخضوع للخطايا والشهوات، أما المدارس الأخرى فاختلفت في هذه المسألة، فمنهم من قال بجواز الكبيرة على النبي قبل البعثة فقط، ومنهم من وسّعها فقال بجواز الكبيرة للنبي قبل البعثة وبعدها، وما إلى ذلك من الآراء^(٢).

وفيما يلي نسلط الضوء على معناها عند المدرستين لننتهي من خلال فقرات البحث إلى أن أيهما أقرب إلى مفهوم الرسالة عن العصمة.

(١) الراغب الأصفهاني في معجم مفردات القرآن: ٢٤٩.

(٢) يقول الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم في كتابه (من جوامع الكلم) ص ٣٤٨-٣٤٩: (العصمة ملكة نفسانية تمنع صاحبها من الفجور، وتتوقف على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، والعصمة لأنبياء بعد الوحي، والعناية قبله، والعصمة من الله تعالى للعبد بمواجهة العبد بوجهه الجميل، مواجهة تجعله في مراقبة دائمة) أ.هـ.

ثانياً: نقطة الخلاف عند تناول الإمامة في المدرستين

الإمامة والخلافة في المدرسة السنّية اتجهت نحو محور واحد، تركّز في أن الإمام والخليفة بعد الرسول ﷺ يعنى هو القائد والزعيم السياسى، الذى يتولى إدارة شؤون النظام الإسلامى بعد وفاة النبي ﷺ وآله.

وعلى هذا الأساس لا ترى داعياً لأن يكون هذا القائد بنص وتعيين من قبل الله وبيان الرسول ﷺ ، بل الأمر متروك للأمة حيث تنصب من تختاره وتجده أهلاً للقيام بهذه المهمة. لأن دور الإمام والخليفة فى نظر هذه المدرسة لا يتعدى مهمة القيادة السياسية وزعامة الأمة فى هذه الحدود، فمن المنطقى أن تكون الطريقة لنصب الخليفة إما وفق نظرية الشورى، أو أهل الحل والعقد، أو بالوراثة.

بقى أن نعرف ما هي الشروط التى لابد من توفرها فى هذا الشخص المرشح للخلافة السياسية بعد الرسول ﷺ ؟

إنّ الشروط التى لابد أن تتوفر فى الخليفة المنتخب يمكن التوصل إليها انطلاقاً من نفس الرؤية التى ترى الإمامة والخلافة بعد الرسول زعامة وقيادة سياسية فحسب، وعليه فيكفى أن تتوفر العدالة فى هذا الإنسان من

الناحية السلوكية، بالمعنى المتداول مع شرط العلمية المتعارفة، ولا يشترط فيه العصمة والعلم الممنوح، فيكفى إذاً أن تتوفر فيه قدرة ترفعه إلى مستوى أداء المسؤوليات فى النظام الإسلامى.

ومحصل رأى المدرسة السنّية فى الإمامة والخلافة هو أنها لا تتعدى كونها قيادة سياسية، وأن شرعية التصدى لها يتم عن طريق الانتخاب والشورى أو الاستيلاء بالقوة أو الوراثة أو الوصية، كما هو واضح من تطبيقاتها العملية المضطربة بعد الرسول ﷺ ، وشرطها العدالة والعلم بالمعنى المتعارف.

ولهذا ذهب البعض يتساءل عن ضرورة وجود إمام غائب أو ضرورة أن يكون معصوماً، أو ضرورة تعيينه بنص الرسول ﷺ وآله.

أما مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فقد اتجهت فى تقويم الإمامة والخلافة بعد الرسول ﷺ إلى أنها مهمة إلهية، كمهمة الرسول ومستمرة حتى نهاية الأرض، فأشترطت العصمة فيها حتى قبل البلوغ بالإضافة للعلم غير المكتسب، والنص الذى يمثل القيمة الشرعية للإمام.

ولهذا كانت المدرسة السنّية لا ترى لهذه الشروط التى لابد من توفرها فى الإمام والخليفة- عند مدرسة أهل البيت- معنى، وغير منسجمة مع المسؤولية التى يتكفل بأدائها الخليفة، فالشروط هنا أوسع وأضخم من مهمة

الزعامة السياسية.

هذه هي العقدة ونقطة الخلاف التي تفسر لنا الاضطراب في فهم الإمامة والتشكيك في مسألة العصمة أو المسوغ لضرورة النص.

لكن الصحيح أن الإمامة في ضوء الكتاب والسنة، كما هو ثابت في محله تتعدى هذا الفهم ولها بُعد يختلف جوهرياً عن الفهم السطحي للإمامة الإلهية بعد النبوة.

فمدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تعتقد أن دور الإمام هو المرجعية الدينية، أو أن مهمته التشريعية تمتد إلى أبعاد مختلفة في العقائد والأحكام والأخلاق والقيادة، لذا وجبت طاعته ووجب اتباعه والأخذ منه، ولهذا تكون أقوال الإمام المعصوم وأفعاله وتقريراته، حجة شرعية منجزة ومعدرة كحجية الرسول ﷺ وآله.

من هنا لزم أن يكون الإمام معصوماً كعصمة الرسول ﷺ، وضرورتها في شخصه في التلقى والتبليغ، ويتضح من هذا أن العصمة بهذا المعنى ليست شرطاً لمهمة القيادة السياسية فقط.

يضاف أن مهمة الإمامة تستوجب أن يكون الإمام عالماً بما يحتاج إليه الناس، في أمور معاشهم ومعادهم.

ولا بد أن يكون أفضل من على وجه الأرض في زمانه، كي يتأتى له أداء مسؤوليته.

والشيعة تعتقد بأن الرسول ليس له دور مستقل في

تعيين الخليفة، بل يتم نصبه والنص عليه بأمر من الله، لأن الغاية من الإمامة وملاكها مرتبط بموضوع ختم النبوة واستمرار الهداية الربانية على طول الخط، والحكمة من ختم النبوة، مرتبطة بتعيين الإمام المعصوم، والإمام هو الذي سيتكفل بتوفير المصالح الضرورية للأمة الإسلامية بعد الرسول.

إذاً، فالإمامة قيمتها عقائدية لا كحكم فقهي فرعي، وهذه النكتة هي التي تجعل شروط الإمامة بهذه الضخامة والسعة، وأنها تتجاوز شروط القيادة السياسية.

فإذا كانت مهمة الإمامة تتسع لمهمة أكبر من القيادة السياسية، استلزم أن تكون العصمة أحد شروطها كما هي في النبوة.

المدارس الأخرى

أصحاب الحديث:

يقول أصحاب الحديث بجواز الكبائر على الأنبياء قبل النبوة، وقال البعض منهم بجواز الذنوب حال النبوة باستثناء الكذب فيما يتعلق بأداء بالشريعة.

ومنهم من قال بجواز الذنوب حتى حال النبوة بشرط أن يكون الذنب في السر دون العلانية.

ومن أصحاب هذا الاتجاه من يذهب إلى جواز الذنوب

في كل الأحوال.

المعتزلة:

واختلف المعتزلة في مسألة العصمة وحدودها إلى عدة آراء:

الأول: قالوا: إنّ وقت العصمة يبدأ من حين بلوغ المعصوم، ولا يجوز عليه الكفر والكبيرة قبل النبوة، ويجوز عليهم الصغائر، إلا الصغائر الخسيسة المتفردة كسرقة حبة، وكل ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعفة.

الثاني: قالوا لا يجوز أن يأتي المعصوم بصغيرة ولا كبيرة على جهة العمد، لكن يجوز على جهة التأويل أو السهو.

الثالث: قالوا لا يقع من المعصوم ذنب إلا على جهة السهو والخطأ، لكنهم مأخوذون بما يقع منهم سهواً وإن كان موضوعاً من أممهم لقوة معرفتهم وعلو مرتبتهم.

الرابع: لا تقع الكبائر ولا حتى الصغائر المستخفة من الأنبياء قبل النبوة وفي حالها.

الأشاعرة:

قالوا كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل، فإنّ الأنبياء معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، أما على سبيل السهو فهو جائز.

وقالوا: بجواز صدور المعصية من النبي قبل النبوة. وعرفها البعض منهم بأنها: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها^(١).

ومنهم من قال: تعنى أن لا يخلق الله في العبد الذنب^(٢).

فتعريف الأشاعرة على أنه سبحانه لا يخلق في المعصومين الذنوب يفهم منه أنه خلق الذنب في غير المعصومين جائز على الله، وممكن في حقه وهذا يعنى نسبة العمل القبيح إلى الله تعالى، وفي اعتقادنا أن المولى لا يصدر منه إلا الحسن ولا يفيض منه إلا الكمال، فالله لا يخلق الذنوب في أحد من العباد فضلاً عن المعصومين.

وذهب أصحاب الحديث والمعتزلة معاً إلى جواز الكبيرة والصغيرة في الإمام، لكنهم قالوا: إن الكبيرة تفسد إمامته، ويجب عزله والاستبدال به.

مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)

قال الشيخ المفيد: العصمة لطف يفعله الله بالمكلف، بحيث يتمتع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته

(١) جامع العلوم ٢: ٣٢٥.

(٢) جامع العلوم ١: ١٨٤.

عليها^(١).

وقال السيد المرتضى: العصمة ما يمتنع عنده المكلف عن فعل القبيح والإخلال بالواجب، ولولاه لم يمتنع عن ذلك، ومع تمكينه في الحالين، الأمر الذي يفعل الله تعالى بالعبد، وعلم أنه لا يقدم مع ذلك الأمر على المعصية بشرط أن لا ينهى فعل ذلك الأمر لأحد إلى الإلجاء^(٢)، وعرفها في الرسائل فقال: هي اللطف الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح^(٣).

وقال الشيخ الطوسي: إنها الملكة النفسانية الحاصلة للأنبياء والأئمة (عليهم السلام) في تتابع الوحي وتصور الفجور وردالة الموبقات وخستها، وإنها القوة العقلية والطاقة النفسية في المعصوم الحاصلتان من أسباب اختيارية وغير اختيارية^(٤).

وقال العلامة الحلي: ذهب الإمامية كافة إلى أن الأنبياء معصومون عن الصغائر والكبائر، منزّهون عن المعاصي، قبل النبوة وبعدها، على سبيل العمدة والنسيان

(١) النكت الاعتقادية مصنفاً للشيخ المفيد ١٠: ٣٧.

(٢) الحدود والحقائق للسيد المرتضى: ١٦٧.

(٣) الرسائل للسيد المرتضى ٣: ٣٢٥.

(٤) تلخيص الشافى للشيخ الطوسي ١: ٧١.

وعن كل رذيلة ومنقصة، وما يدل على الخسة والضعفة، وخالفت المذاهب الأخرى كافة في ذلك وجوّزوا عليهم المعاصي، وبعضهم جوّزوا الكفر قبل النبوة وبعدها، وجوّزوا عليهم السهو والغلط^(١).

وعرفها الشيخ المظفر بأنها: التنزّه عن الذنوب والمعاصي صغائرها وكبائرها وعن الخطأ والنسيان^(٢).

وبعد أن أتضح مفهوم العصمة وحدّها عند المدرستين نشرّع في تناول باقى الفقرات، والتي نأمل أن يتضح المفهوم الإسلامى للعصمة من خلالها.

ثالثاً: ضرورات العصمة

وضرورة العصمة في النبوة تتجلى من خلال معرفة الأدوار والمهام الإلهية التي جاء بها الأنبياء، وقد بيّن القرآن الكريم تلك المهام والمعالم والأهداف بما يلي:

١ - الدعوة إلى التوحيد: سعى الأنبياء (عليهم السلام) إلى تحرير الناس من كل ألوان العبوديات، وإخلاص عبوديتهم لله، ومن أجل تحقيق هذه المهمة والارتقاء بالناس إلى مستوى فهم الكمال والعبودية بمختلف صورها، تعرضوا لأنواع شتى من العذاب والاضطهاد،

(١) دلائل الصدق ١: ٣٦٨.

(٢) عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر: ٥٤.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾^(١)، وواضح أن أمر العبادة لم يكن أمراً يسيراً، لأنه المحور الذي تنفرع عنه أنشطة الحياة وهي الرؤية التي نشب الصراع حولها منذ خلق الإنسان.

٢- حمل الرسالة وإيصالها للناس: يقوم الأنبياء (عليهم السلام) بإيصال الرسالة، والنصائح الإلهية للبشرية، لتوقف إدراك المصالح والمفاسد على الرسالة ووضوحها، ولهذا مارس الأنبياء دورهم في بيان عجز البشرية عن إدراك العدالة ومعرفة الهداية بأنفسهم ما لم يرتبطوا بفكر السماء ويتولوا حمله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿أَبْلَغَكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٣).

٣- تحقيق العدالة: لم تقتصر مهمة الأنبياء على الإنذار فقط، أو بيان المعالم النظرية للرسالة وإثبات ضرورة الإيمان ونبذ الآلهة المتعددة التي لاتجر إلا الظلم والفساد. ولم تتركز باتجاه التربية الفعلية فقط، بل تتعدى

(١) النحل: ٣٦.

(٢) الروم: ٤٧.

(٣) الأعراف: ٦٨.

ذلك فتدخل في تفاصيل حياة الناس وتهدف إلى إزالة الظلم ومواجهة المستكبرين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرِسَالَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

٤- البشرى والإنذار: مهمة أخرى في عمل الأنبياء (عليهم السلام) تلك هي النصح للأمة والإخلاص لها وتحذيرها من مخاطر الشرك، وما سيؤول إليه من انهيار للحضارات، وتبصيرهم بسنن الله في الخلق، وأن بعد الموت حياة أخرى يعاقب فيها المسيء ويثاب فيها المحسن، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).

فإذا كانت النبوة تبلغ عن الله رسالته وأحكامه للناس، وتستهدف الأخذ بهم نحو الكمال الإنساني، وتتسع أهدافها لتشمل أكثر من بعد، فلا بد لها إذا من لياقات وطاقت استثنائية تؤهل الرسول للقيام بهكذا مهمة، من هنا تأتي

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) الأحزاب: ٤٥.

العصمة كواحدة من تلك المؤهلات ذات التأثير البالغ فى عملية التربية والإصلاح، لأن حصول الثقة والاطمئنان يشكل عامل حب له من قبل الناس، وبالتالي قبول أقوال النبى والافتداء بأفعاله التى تمثل رضا الله، فلو لم يحصل النبى على هذه الدرجة من الثقة لما أمكن التسليم لرسالته. قال الفيلسوف الطوسى: (يجب فى النبى العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض)^(١) ويمكن تلخيص ضرورتها فيما يلى:

١- لما قلنا إن الغرض من بعثة الأنبياء هو الهداية وإبعاد الناس عن الظلم والفساد، وهذا الغرض لا يحققه غير المعصوم، لأن الوسيلة للهداية هى الاقتداء بأفعال وأفكار هذا الإنسان ولا يقوى على حمل هذه المسئولية إلا المعصوم، لأنه أدرى الناس بمقاصد الله وأحكامه، والعقل يدرك بأن المعصوم دون غيره هو الأعراف بغرض الله وتعاليمه، لأنه أكمل الناس فى الصفات ولولا ذلك لما كان معصوماً، والأكمل أقوى حجة وأنفذ فى تحقيق الغرض الكامل الذى يريده الله.

أما غير المعصوم فيكون عرضة للخطأ والنسيان، فلا يمتلك القابلية والأهلية للهداية، وذلك لمساواته مع الناس، من حيث التصرف والسلوك.

(١) كشف المراد: ٢١٧.

٢- فلو قيل: رغم ضخامة مهمة النبوة أو الإمامة وسعة المسؤولية فيهما إلا أن العصمة غير ضرورية فى النبى أو الإمام، لإمكانية التبليغ بدونها. قلنا (الإمامية): هذا غير صحيح، لأن مسألة تفهيم الناس معنى العبودية وتربيتهم وإرشادهم لطريق الحق وإبعادهم عن الفساد وتنازلهم عن مغريات الدنيا تحتاج الثقة والجاذبية نحو شخص المرسل لأجل أداء دوره. أما النبى الذى يحتل فيه الخطأ والنسيان والسهو أو ارتكاب الجرائم والعصيان فسوف يودى إلى ابتعاد الناس عن شخصه، وبالتالي حصول النفرة والأشمئزاز منه، ويصدق بحقه الخطاب الإلهى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١).

٣- والقول بعدم عصمة الأنبياء فى السهو والخطأ والنسيان، وكل ما أثبتناه لمعنى العصمة فى المنظور الإمامى يجرنا إلى جواز الطعن والشك فى شرائعهم، وهذا الشك يتفرع عنه عدم الوثوق بأقوالهم لاحتمال الخطأ والنسيان، فالزيادة محتملة فى أفعالهم وأقوالهم، ومن المحتمل عندئذ أن تجر النبى الشهوة، ويسقط فى الإغراء، وتضعف ذاته، فيأمر وينهى انطلاقاً من تلك المؤثرات والرغبات النفسية، كما هى اعتراضات بعض الصحابة على رسول الله عندما قرر مثلاً الصلح مع

(١) البقرة: ٤٤.

المشركين، أو أمر بعدم قتل عمّه العباس في بدر ظناً منهم بأن هذا ميل للعمومة.

٤- والقول بعدم عصمة النبي أو الإمام يعنى القول باجتماع الأمر باتباعه والنهي عن امتثال أمره، فلو فعل النبي أو الإمام معصية واقتترف خطيئة، ففي هذه الحالة ماذا يفعل المكلف والمأمور باتباعه والمقتدى بأفعاله، فهل يجب عليه الاتباع والاقتراف بسيرته أم ماذا؟

فإذا فعل المكلف القبيح فمعناه أنه خالف أمر الله بهذا الفعل واستحق عقابه، والحال أنه منهي، لأن الله لا يأمر بالقبيح، وإذا لم يفعل فقد خالف، لأنه مأمور من قبل الله بطاعة النبي مطلقاً، وبهذا تنتفي فائدة البعثة، وهذا يعنى اجتماع المفسدة والمصلحة والمبغوضية فى موضوع واحد، وفى مصداق واحد.

٥- والقول بعدم عصمة النبي أو الإمام سواء مطلقاً أو بالتفصيل يستلزم منه أن يكون النبي أو الإمام أدون الناس، لأنه فى حالة ارتكاب المعصية أو الخطأ سيؤدى إلى هبوط مقام النبي، فينزل به إلى مستوى البساطة لا بل يكون أقل قيمة واعتباراً بين أفراد المجتمع، بينما المقام الذى تصدى له مقام عظيم، ولهذا نجد القرآن الكريم يخاطب نساء النبي بغير لسان فكيف بالنبي.

رابعاً: العصمة والاختيار

لم تكن عصمة الأنبياء والأئمة هى عدم ارتكاب المعصية فحسب، إذ من الممكن أن لا يرتكب الفرد العادى معصية خلال عمره كله، وخاصة لو كان عمره قصيراً، بل نعنى به توفره على ملكة نفسانية قوية، تمنعه من ارتكاب المعصية حتى فى أشد الظروف، وهى ملكة تحصل من وعيه التام والدائم بقبح المعصية وإرادة قوية على ضبط الميول النفسية، وبما أن هذه الملكة لا تتحقق إلا بعناية إلهية خاصة، لذلك تنسب فاعليتها إلى الله، وإلا فإن الله لا يمنع المعصوم من اقتراف المعصية جبراً، ولا يسلب منه الاختيار^(١).

قال الشيخ المفيد: العصمة لطف يفعله الله بالمكلف حيث يمنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليها^(٢).

وقال نصر الدين الطوسى: العصمة هى أن يكون العبد قادراً على المعاصى، غير مرید لها مطلقاً.

وعدم إرادته أو وجود صارفة يكون من الله لطفاً فى حقّه، فهو لا يعصى الله، لا بعجزه، بل لعدم إرادته، أو

(١) دروس فى العقيدة الإسلامية، مصباح اليزدى : ٢٣٣.

(٢) النكت الاعتقادية، مصنفات الشيخ المفيد : ١٠ : ٣٧.

لكون صارفه غالباً على إرادتها^(١).

وتقسم العصمة على نحوين: اختيارية، وغير اختيارية.

الأولى: فضيلة لهم لأنهم الذين يتركون داعية الذنوب، فضلاً عن نفسها، بالاختيار، وكفى به فضلاً.

الثانية: ليست بنفسها فضيلة لعدم مدخلية اختيارهم فيها، ولكن اختصاص هذه الموهبة بهم يكشف عن لياقتهم لإيهاب هذا اللطف العظيم في علم الحكيم، لأن لياقتهم حاصلة بحسن انقيادهم في علمه تعالى، ومن المعلوم أن أحسن الانقياد فعل اختياري لهم، فالعصمة فضيلة اختيارية باعتبارها أو باعتبار مكشوفها من حسن الانقياد.

ثم إن ترك داعية الذنوب فضلاً عن نفسها بالاختيار، إما ناشئ عن إيمانهم بالله واليوم الآخر، وقوة إرادتهم مع علمهم بالحقائق وتأثير المعاصي في الدنيا والآخرة، علماً بيئاً لا ستر فيه، أو عن حبهم لله تعالى حباً خالصاً لا يخالطه شيء آخر^(٢).

(١) تلخيص المحصل المعروف بنقد المحصل : ٥٢٥، باب العصمة.

(٢) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية للسيد محسن الخرازي : ٢٤٩ : ١.

خامساً: العصمة والعدالة

تُعرّف العدالة بأنها ملكة أو هيئة أو حالة أو كيفية، باعثة نحو الإطاعة، بالإتيان بالواجبات وترك المعاصي والمحرمات^(١).

وعرّفها البعض بأنها الإتيان بالأعمال الخارجية من الواجبات واجتناب المحرمات الناشئة من الملكة النفسانية. وفي هذا التعريف أُشير إلى المسبب عن العدالة، بخلاف الأوّل الذي أشار إلى السبب.

وعرّفها آخر بأنها الاستقامة الدينية في العمل بوظائف الدين، ومانعة عن المعاصي الكبيرة، وعدم الإصرار على الصغيرة^(٢).

والظاهر من هذا التعريف أنه لم يشر إلا من قريب ولا بعيد إلى الملكة النفسانية، بل اعتبرها أمراً خارجياً، وهي الاستقامة الدينية في العمل.

وقد ذُكرت للعدالة دواعٍ ومناشئ:

منها: تسلط القوة العاقلة على العلم العملي، والذي سيستنتج منه أعظم مراتب العدالة، وأقوى درجات

(١) الاجتهاد والتقليد، كتاب التنقيح على العروة الوثقى، السيد الخوئي :

٢٥٤.

(٢) جامع الأحكام الشرعية: ١١٨.

مع العدالة^(١).

سادساً: العصيان والاستغفار والتوبة في حياة الأنبياء

احتجّ البعض ممّن يذهب إلى جواز المعصية عند الأنبياء ضمن التفصيل المعروف كعدم العصمة قبل النبوة، أو جواز المعصية للنبي في غير الأحكام، أو جواز السهو والنسيان في حياتهم تماشياً مع المفردات التي وردت في القرآن الكريم، ظناً منهم بأنها تشير إلى جواز ارتكاب المخالفة عندهم كعصيان النبي آدم، وتوبة النبي موسى، وإيقاق النبي يونس، واستغفار النبي داود وما إلى ذلك ممّا ورد من هذا القبيل في القرآن الكريم، ولما كثر الحديث في هذه المسألة ارتأينا أن لا نخوض في تفاصيل تلك الإشكالات، ونكتفي بالقول الذي يضمن لنا الإجابة على جميعها ويزيح الغبار الذي طرأ على مفهوم العصمة عندهم (عليهم السلام).

وحين نمتلك المنظور الإسلامي إزاء تلك المشكلات فلا يبقى معنى للتمسك بتلك الإيرادات كدليل لصحة القول بجواز ارتكاب المعصية عند الأنبياء.

لقد ورد النهي في القرآن الكريم على نحو ثلاثة

(١) الميزان في تفسير القرآن ، للطباطبائي ١١ : ١٦٣ .

الاستقامة لغير المعصوم، ويكون رادعاً عن المعصية ومانعاً عن ارتكاب الخطيئة، رغم وجود المقتضى لفعالها والدافع لارتكابها.

ومنها: أن يتحرك الإنسان بداعي الثواب والخوف من العقاب.

ومنها: ما قد يكون الداعي لتبني العدالة عاملاً خارجياً، كالشرافة والمنزلة الاجتماعية التي تمنعه من ارتكاب المعاصي.

لكن هذا الداعي لا ينسجم مع المعنى الاصطلاحي للعدالة، الذي يشترط في العدالة أن تكون بدافع الانقياد للمولى والطاعة له، وهذا غير متحقق بهذا اللون من الدوافع.

ومن هنا يتحصل أن المعصوم لا تصدر منه المعصية مطلقاً، بل لا يفكر بها أصلاً.

أما العادل فقد يصدر منه الخطأ والمعصية وقد لا يصدر، وذلك لأن المقتضى لها ودوافعها في النفس الإنسانية موجودة، كما أن العادل إذا صدرت منه المعصية ثم تاب يرجع إلى حالة الاستقامة والعدالة. وهذه الصفة لا تنطبق على المعصوم.

ولهذا قال العلامة الطباطبائي: بأنّ كليهما - أي العصمة والعدالة - يمنعان من صدور المعصية، ولكن لا مقتضى للمعصية مع العصمة، وهناك مقتضى للمعصية

أقسام:

١- نهى مولوى إلزامى تحريمى، وملاكه المبعوضية الشديدة للمولى والمفسدة، ومثاله: تحريم الخمر والزنا والكذب .. وإلى غيرها من المحرمات، فالشارع لا يسمح بارتكابه ويعاقب ويعذب على فعله.

٢- نهى مولوى ولكن غير إلزامى ويصطلح عليه بالنهى الكراهتى وفى ملاكه المبعوضية وفيه مفسدة، ولكن ليست بالشديدة التى تصل إلى حد الإلزام، بل يقال فيه مجال للتريخيص والفعل مثل كراهة الأكل جنباً وغيرها، ومركبها لم يخرم طاعة الله وحدود مولويته، نعم قد فاته الأولى والأفضل بفعله وتصرفه.

٣- نهى إرشادى، فليس فى فعله مبعوضية، ولا بتحقيقه مفسدة أخروية وليس له بعالم الحساب والعقاب أى صلة، نعم يترتب على فعله مضار دنيوية ومفاسد آنية فى دنيا العبد دون آخرته.

وبعد أن اتضحت أقسام النهى نأتى إلى مسألة أفعال الأنبياء التى قد تفهم أنها معصية ومخالفة، فنقول: إذا كان النهى الوارد فى القرآن بخصوص الأنبياء نهياً تحريمياً وتترتب عليه مبعوضية ومفسدة أخروية ودنيوية فهذا يخل بالعصمة التى أقرها القرآن الكريم فى أكثر من موضع ويلزم منه القول بعدم عصمة الأنبياء، أما إذا استفدنا واستظهرنا أن المراد بالنهى فى القرآن الكريم هو النهى

الإرشادى فلا يبقى محل للإشكال ولا مورد للاعتراض، وبنفس هذا التصوير يمكن التعامل مع المفردات الأخرى التى وردت الإشارة إليها فى القرآن الكريم. فالاستغفار أو التوبة وأمثالهما لا تيرر لنا القول بجواز المعصية على الأنبياء.

جاء فى حديث على بن محمد الجهم عن الإمام الرضا عليه السلام وقد سأله قائلاً: (يا بن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: نعم، قال: فما تعمل فى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١)، فقال الرضا عليه السلام: ويحك يا على، اتق الله ولا تتسب أنبياء الله إلى الفواحش، ولا تتأول كتاب الله برأيك، فإن الله يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٢). أما قوله عز وجل فى آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فإن الله عز وجل خلق آدم حجة فى أرضه وخليفة فى بلاده، ولم يخلقه للجنة، وكانت المعصية فى آدم فى الجنة لا فى الأرض. وعصمته يجب أن تكون فى الأرض ليتم مقادير أمر الله عز وجل، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصمة الله بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا

(١) طه: ١٢١.

(٢) آل عمران: ٧.

وَأَلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

في هذه الرواية إشارة واضحة إلى أن اختبار آدم لم يكن في هذه الأرض وليس ذلك عالم تكليف، لأن عالم التكليف هو الذي يكون فيه آدم ﷺ حجة على العباد وهو عالم الأرض.

كما يمكن القول بأن خطيئة آدم لم تكن معصية لأمر مولوى بل إنها تمثل معصية لنهي إرشادي، ولهذا لم تستتبع عقوبة أخروية أو طرداً من رحمة الله، بل أدت إلى فقدان نعيم الجنة. وجعل النبي آدم حجة وخليفة يستلزم منه العصمة التي لا فيها ظلم ولا خطيئة تستوجب عقوبة وعذاب.

أما مفردة الاستغفار فلاشك في عدم حاجة النهي الإرشادي إلى الاستغفار، كما ليس بالضرورة دائماً أن يكون منشأ الاستغفار هو الذنب، فقد يكون صاحب الاستغفار ذا مقام شامخ فيأتي الاستغفار منه كتعبير عن مقام عالي في العبودية له سبحانه، لأن الاعتراف بالتقصير والشعور بالذنب والذلة أمام عزّة المعبود من أعظم التفاني في معرفة الله سبحانه، ولهذا كان نبي الرحمة ﷺ من المستغفرين، وقد ورد في القرآن طلب الاستغفار من النبي رغم عدم ارتكابه أي ذنب أو خطيئة

(١) آل عمران: ٣٣.

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (١). وواضح أن مجيء نصر الله ودخول الناس في دين الله أفواجا ليس بذنب ليجب الاستغفار.

أما التوبة فقد فسرت بمطلق الرجوع بذنب وبدون ذنب، كما في قوله تعالى: ﴿وَالِيَهُ مَتَابٌ﴾ (٢).

كما تعنى التوبة الرجوع من التشديد إلى التخفيف (٣) ومنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ نَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (٤) ومن الحظر إلى الإباحة ومنه قوله تعالى: ﴿... تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (٥).

ثم لا تنحصر مناشئ التوبة بالذنب، كما يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (٦). أي: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي، فلا ذنب في مقام موسى ولا محل للخطيئة حتى يطلب موسى التوبة، وعليه فإن معنى التوبة أوسع من الذنب والخطيئة.

(١) النصر: ٣.

(٢) الرعد: ٣٠.

(٣) مجمع البحرين ٢: ١٥.

(٤) المزمّل: ٢٠.

(٥) البقرة: ١٨٧.

(٦) الأعراف: ١٤٣.

وأما الظلم فيمكن تقسيمه إلى قسمين:

الأول: ظلم للنفس، وهو إيقاعها فى مشاكل الدنيا ومتاعبها، لأنه لم يرع مواضع الأشياء ومواقعها الطبيعية فينحرف عنها ويضل وهذا ظلم للنفس، ولكن تحتمل النفس متاعبه ومشاقه فى الدنيا كالذين يضلون الطريق ويتيهون عن الجادة الموصلة فيتحملون مشاق تيههم.

والثانى: ظلم للنفس بإيقاعها فى عقاب التحريم وغضب المخالفة الإلهية، وكلا القسمين داخلان فى تعريف الظلم، ولا يصح حمل الظلم الذى ورد على لسان الأنبياء على الظلم الثانى.

وهذا القدر يكفى لتطبيقه على الموارد التى يفهم منها عدم عصمة الأنبياء (عليهم السلام).

سهو النبى ﷺ ونسيانه:

استدل البعض على وقوع السهو من النبى ﷺ، بأن الله سبحانه أمر النبى ﷺ - بعد نسيانه - بعدم القعود مع الظالمين، حينما يذكر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١) بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ

(١) الأنعام: ٦٨.

عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (١) (٢).

والنسيان فى الآية المباركة لم يصدر من الرسول ﷺ، فلم يكن الغرض من خطابه ﷺ بذلك هو توجيه التكليف إليه، بل المراد من الخطاب هو جعل التكليف لسائر المؤمنين؛ وذلك لأن الخطابات القرآنية - كما ذكر أهل البلاغة وأصحاب التفسير - نزلت على نحو: (إيَّاكَ أعنى واسمعى يا جارة) (٣)، نظير نهى الأب عندما يريد أن ينهى أولاده عن فعل شىء قبيح فيوجه الخطاب إلى ولده الأكبر وهو يعلم أنه لا يفعله فيرتدع الباقون، وهذا الأسلوب فى الخطاب من روائع الكلام، فإن توجيه النهى لأقرب الناس من المتكلم - مع ثقته به واطمئنانه بعدم قيامه بالفعل المنهى عنه - موجب لردع الآخرين وزجرهم بنحو أقوى من اختصاص الخطاب بغيره وتوجيهه إلى الآخر المقصود بالنهى، والمسوغ لهذا اللون من الخطاب مع علم المتكلم بعدم عصيان المخاطب هو وجود ملاك النهى فيه، أى القدرة على المخالفة والعصيان وإلا كان الخطاب لغواً، وكذلك الأمر فى الخطابات القرآنية ومنها الآية

(١) الآية السابقة

(٢) ينقل هذا القول عن الجبائى، راجع بحار الأنوار ١٧: ٩٨.

(٣) مجمع الأمثال ١: ٤٩، والقائل سهل بن مالك الفزارى.

الكريمة المذكورة، فإنّ المصحح لها مع علمه تبارك وتعالى بعصمة النبي ﷺ ونزاهته هو وجود ملاك النهى وهو قدرته على المخالفة والمعصية، إذ العصمة لا تسلب المعصوم قدرته على المخالفة كما مرّ الكلام عنها، فالله سبحانه وتعالى يوجه الخطاب إلى النبي ﷺ بعدم الجلوس في المكان الذي يساء فيه إلى القرآن والدين حتى يعلم الناس بعدم جواز الجلوس في مثل ذلك المكان، وأن هذا الحكم موجه للجميع من دون أن يراد ﷺ بقوله: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ﴾ أنه سيقع في هذا النسيان بالفعل، وعليه فلا دلالة في هذه الآية على تحقق النسيان من النبي ﷺ (١).

الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء عليهم السلام

أما الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء فيمكن تلخيصها بما يلي:

١- عبر القرآن الكريم عن بعض الأفراد بأنّه مُخَلَّص وهذه المفردة التي هي بفتح اللام غير المفردة التي بكسر اللام. فالأولى إشارة إلى أن الله جعل الشخص مخلصاً. أما الثانية فتشير إلى أن الشخص يمارس عمله بإخلاص ونية صادقة مخصصة.

(١) نفي السهو عن النبي ﷺ، الآية الله محمد جواد التبريزي : ٣٨.

والمخلصون لا يطمع في إغوائهم حتى الشيطان، ومن هنا أقسم على إغواء بني آدم جميعهم واستثنى المخلصين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١).

ولا شك في أن مبعث يأس الشيطان من إغوائهم إنّما هو؛ ما يملكونه من تنزيهه وصيانة من الضلال والآثام، وإلاّ فإنّ عداؤه شامل حتى لهؤلاء، ولو كان يمكنه إغواؤهم لما تخلّى عن إغوائهم وأعرض عنهم.

إذا فعنوان (المخلص) مساوٍ لـ (المعصوم)، وإنه وإن لم يوجد دليل على اختصاص هذه الصفة بالأنبياء، إلاّ أنه لا يمكن الشك في شمولها لهم. وقد اعتبر القرآن الكريم بعض الأنبياء من المخلصين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنا عِبَادِنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنا الدَّارِ﴾ (٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنا فِي الْكِتابِ مُوسَى إِنَّهُ كانَ مُخْلِصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ (٣).

وكذلك اعتبر السبب في تنزيه يوسف عليه السلام عن

(١) سورة ص: ٨٢-٨٣.

(٢) سورة ص: ٤٥-٤٦.

(٣) مريم: ٥١.

الانحراف في أشد الظروف هو أنه كان مخلصاً، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

٢- لقد فرض القرآن الكريم على البشر إطاعة الأنبياء بصورة مطلقة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

وإنما تصح إطاعتهم المطلقة فيما لو كانت في مسار إطاعة الله وبموازاتها، بحيث لا تكون إطاعتهم منافية لإطاعة الله، وإلا فإن الأمر بالإطاعة المطلقة لله تعالى، والأمر بالطاعة المطلقة لمن هم معرضون للخطأ والانحراف سيكونان على طرفي نقيض.

٣- لقد خصص القرآن الكريم المناصب الإلهية لأولئك الذين لم يتلوثوا بـ (الظلم)، يقول تعالى في جوابه لإبراهيم عليه السلام الذي طلب منصب الإمامة لأبنائه: ﴿لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

ونحن نعلم أن كل معصية هي ظلم للنفس على الأقل، وكل عاصٍ ومذنب ظالم في عرف القرآن، إذا فالأنبياء

(١) يوسف: ٢٤.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) البقرة: ١٢٤.

أصحاب المنصب الإلهي - النبوة - لابد أن يكونوا منزّهين عن كل ظلم ومعصية.

سابعاً: العصمة وضرورتها في الإمام

تعتقد الإمامية أن العصمة مطلقة في النبي والإمام، وتعني أنه معصوم عن الذنب ومنزه عن الخطأ والنسيان والسهو، ولا يلتبس بالجهل والغفلة، سواء كان ذلك قبل البعثة أو الإمامة أو بعدها، فهو إنسان كامل لا يعتريه النقص البشري ولا يغلب عليه الميل النفساني من ولادته إلى مماته، فهو معصوم في معتقده وفي أفعاله الدينية وفي تكاليفه الشرعية وفي تبليغه للأحكام الشرعية الإلهية ومستقيم في طباعه.

وتأتي العصمة وضرورتها في الإمامة تبعاً لضرورة الإمامة بعد النبوة، ولهذا استدلت الإمامية على وجوب الإمامة بقاعدة اللطف، أي: أن الإمامة لطف من الله عز وجل كما هي النبوة.

واللطف فيض إلهي، لأن المولى حينما خلق الإنسان أراد له أن يصل إلى منتهى كماله الإنساني، ولما كان الإنسان ملهماً بنوازع الخير والشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١) فهو ميال إلى الداني ويتترك

(١) الشمس: ٧-٨.

ما جعل سبباً لكماله، فمن لطفه سبحانه ورحمته الواسعة أن يهيئ له سبب الهداية، ولهذا فقد أرسل الأنبياء ليتكفّلوا بهداية الإنسانية.

وبنفس هذا التأسيس تأتي الحاجة للإمام المعصوم بعد غياب النبي باستثناء الوحي، فاللطف الذي هو فيض من المولى وأدى إلى مجيء النبوة لا ينقطع حين غياب النبي، لأن الداعي باق.

ومن ضرورات العصمة للإمام: أن وجود الإمام في وسط الأمة يمثل خطأً طبيعياً للرسالة وامتداداً لنبيها، فعلى هذا الأساس يكون عاملاً لبناء الرسالة ومرجعاً لهداية الناس، ذلك لأن الهدف من حركة الإنسان ووجوده هو الوصول إلى أرقى المراتب في الكمال الإنساني، وإذا كان هذا الهدف فهو إذاً بحاجة إلى إمام معصوم يربط بين عالم الغيب المتعالى والنوع الإنساني المحتاج.

ومن هذا المنطلق تأتي مسألة قبول الأمة لإرشاداته، لأنه الممثل للنبوة، وتتأكد الطاعة والقبول لشخصه فيما إذا كان معصوماً، أما إذا كان غير معصوم فسوف يبرر للأمة عدم طاعته وقبول أوامره، وإذا لم تصدقه الأمة سيؤدي هذا الأمر بطبيعة الحال إلى ضلال الأمة وعدم تحقق الغرض الإلهي.

ولا يوجد أي مانع من أن يكون الإمام معصوماً، ما دام المولى قادراً على تحقيق ذلك، ولا يوجد محذور

عقلي في نفس القابل، وقد أثبتنا ذلك في عصمة الأنبياء. وتأتي مسألة أخرى وهي أن الشريعة التي جاء بها النبي خالدة وعامة لكل البشر وعلى مختلف الأزمنة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، إذاً فهو مشروع لكل الأمم، وإذا كان بهذه السعة وهذا الامتداد فلا بد من وجود عمر يمتد بامتدادها من أجل أن يساير النبي مشروعه حتى اكتماله واقتطاف ثماره، ولما كان عمر النبي قصيراً ومحدوداً في مدته، فلا بد أن يلحق عمر النبي عمر آخر أطول منه يمتاز بنفس الطاقات والصفات والمؤهلات حتى يحقق الغرض الإلهي.

وحيث لا يمكن أن يكون هذا القائد نبياً، لأنه لا نبي بعد رسول الله، فيبقى الأمر محدوداً بالإمام المعصوم، وهذا الأمر تؤكدّه كثير من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية^(٢).

قال السيد المرتضى: فأما الطريق الذي به يعلم أن الأئمة (عليهم السلام) لا يجوز عليهم الكبائر في حال الإمامة، فهو أن الإمام إنما احتيج إليه لجهة معلومة، وهي أن يكون المكلفون عند وجوده أبعد من فعل القبيح

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) مسند أحمد ١: ٧٩، ٨٧ و ٣: ٣٢ و ٦: ٣٦٩.

وأقرب من فعل الواجب، فلو جازت عليه الكبائر لكانت علة الحاجة إليه ثابتة فيه، وموجبة وجود إمام يكون إماماً له، والكلام في إمامته كالكلام فيه، وهذا يؤدي إلى وجود ما لا نهاية له من الأئمة، وهو باطل، أو الانتهاء إلى إمام معصوم، وهو المطلوب.

ومما يدل أيضاً على أن الكبائر لا تجوز عليهم، أن قولهم قد ثبت أنه حجة في الشرع كقول الأنبياء (عليهم السلام)، بل يجوز أن ينتهي الحال إلى أن الحق لا يعرف إلا من جهتهم، ولا يكون الطريق إليه إلا من أقوالهم، وإذا ثبت هذا جملة جروا مجرى الأنبياء (عليهم السلام) فيما يجوز عليهم وما لا يجوز، فإذا كنا قد بينا أن الكبائر والصغائر لا يجوزان على الأنبياء (عليهم السلام) قبل النبوة ولا بعدها، لما في ذلك من التنفير عن قبول أقوالهم، ولما في تنزيههم عن ذلك من السكون إليهم، فكذلك يجب أن يكون الأئمة (عليهم السلام) منزّهين عن الكبائر والصغائر قبل الإمامة وبعدها، لأن الحال واحدة^(١).

وهناك من يذهب إلى أن البديل للإمام المعصوم هو الأمة، فعقل الأمة ووعيها ورشدها الإسلامي ووجود المصلحين والأخبار فيها، يؤهلها للقيام بدور الإمامة بدل

(١) تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى: ٢٢.

الشخص المعصوم، والأمة كناية لتولى رعاية الشريعة وحفظها لا تختار الباطل ولا تتحدر نحو الهاوية، بفعل وجود عوامل شرعية مرة وعقلانية أخرى.

ويعترض هذا التوجيه سؤال هو: هل يجوز على الأمة الخطأ والنسيان والتضليل والانحراف أم لا؟

بالتأكيد سيكون الجواب إيجابياً، فلا يتصور أحد عدم نسيان الأمة وعدم خطئها واختلافها، فلو نظرنا إلى الحقائق القرآنية التي تحدثت عن اختلاف الأمم في الماضي، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(١). وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) لانهينا إلى عدم عصمة الأمم وعدم عصمة الأمة الإسلامية بشكل خاص، لوجود الاختلافات والانقسامات التي أصابتها بعد غياب صاحب الرسالة، فضلاً عن كونها أمة لا تختلف في طبائعها وميولها، وأن الاختلاف الذي يكون سبباً لتمزقها لا بد له من مرجع ورئيس يحسم بقرار المعصوم ذلك النزاع والاختلاف وعدم صلاحية فئة من الأمة لرفع الظلم

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) آل عمران: ١٠٥.

فإن الإرادة التشريعية للتطهير لا تختص بقوم دون قوم وبيت دون بيت. والإرادة التكوينية منه تعالى لا تتفك عن المراد. فتطهير أهل البيت من الرجس أمر واقع بإرادة الله تعالى، فهم المعصومون من الذنوب والآثام والأخطاء. هذا هو الظاهر من نفس الجملة بصرف النظر عما قبلها. وروايات نزولها في أهل البيت - أهل بيت الوحي المطهرين، علي وفاطمة والحسن والحسين - دون غيرهم كثيرة جداً تربو على سبعين حديثاً من طرق الفريقين، وإذا لم يكن مثل هذه الروايات معتمداً عليها فبأى حديث بعده يؤمنون؟!

وهذه الروايات التي روتها الشيعة بطرقهم، عن أمير المؤمنين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعلي بن موسى الرضا (عليهم السلام) وعن أم سلمة وأبي ذر وأبي ليلي وأبي الأسود الدؤلي وعمر بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وروتها السنة بأسانيدهم عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلة بن الأصقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جعفر وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي (عليهم السلام)، كلها تدل على أن الآية نزلت في الخمسة الأطهار: رسول الله وابن عمه علي وبنته فاطمة وسبطيه الحسين (عليهم السلام)، وهم

والفساد عن الأخرى، لادعاء الثانية بأنها تريد رفعه عن أختها أيضاً.

الأدلة النقلية على عصمة الأئمة (عليهم السلام)

أما الأدلة النقلية على عصمة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) القرآنية والروائية فكثيرة، نقتصر على ذكر نماذج منها:

١- آية التطهير

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

إن الآية تنص على حصر إرادة الله تعالى هنا في إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم تطهيراً كاملاً شاملاً، وهذا الحصر إنما هو بالنسبة إلى ما يتعلق بأهل البيت، وإلا فإن الله تعالى إرادات تشريعية وتكوينية غيرها بالضرورة، فالمعنى أن إرادة الله إذهاب الرجس والتطهير مختصة بهم دون غيرهم، فتصير في قوة أن يقال: يا أهل البيت، أنتم الذين يريد الله أن يذهب عنكم الرجس ويطهركم من الأدناس. فالإرادة هذه تكوينية لا محالة،

(١) الأحزاب: ٣٣.

المرادون بأهل البيت دون غيرهم^(١).
ونطالع في هذا الصدد ما جاء في مسند الإمام أحمد
ابن حنبل كأحد النماذج التي تؤكد هذه الواقعة.
روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسنده عن أبيه
عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على وائلة بن الأصقع
وعنده قوم فذكروا علياً، فلما قاموا قال: ألا أخبرك بما
رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة
(عليها السلام) أسألها عن علي، قالت: توجه إلى رسول
الله ﷺ. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه
علي وحسن وحسين (عليهما السلام) أخذاً كل [واحد]
منهما بيده حتى دخل، فأدني علياً وفاطمة فأجلسهما بين
يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذيه، ثم
لف عليهم ثوبه - أو قال: كساء - ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً﴾^(٢) وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي
أحق)^(٣).

(١) راجع الإمامة والولاية لجمع من العلماء : ١٥٠.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) مسند أحمد ٤: ١٠٧، أجمع المفسرون على نزول آية التطهير في
فضل (أصحاب الكساء) في بيت أم سلمة وروى متواتراً عن أئمة أهل

وجاء أيضاً في الدر المنثور، عن أم سلمة (رضي الله
عنها) زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان بينهما على
مقامة له عليها كساء خيبرى فجاءت فاطمة (عليها
السلام) ببرمة فيها حريرة، فقال رسول الله ﷺ: ادعى
زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ
نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١) فأخذ النبي
بفضلة إزاره فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء وأوماً
بها إلى السماء، ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي
فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) قالها ثلاث
مرات^(٢).

البيت (عليهم السلام)، وكثير من الصحابة، وهذا نموذج من مصادره:
الحافظ الكبير، الحنفى المعروف بالحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢:
١٠-١٩٢ بعدة أسانيد، والحافظ جلال الدين السيوطى في الدر المنثور ٥:
١٩٨ بطرق، وكذا الطحاوى في مشكل الآثار ١: ٢٣٨-٣٣٢، والحافظ
الهيثمى في مجمع الزوائد ٩: ١٢١ و ١٤٦ و ١٦٩ و ١٧٢، وأحمد بن
حنبل في مسنده ١: ٢٣٠ و ٤: ١٠٧، وابن حجر فى الصواعق: ٨٥،
والطبرى فى تفسيره ٢٢: ٥ و ٦ و ٧، وابن الأثير فى أسد الغابة ٤: ٢٩،
والنسائى فى خصائصه: ٤.

(١) (الأحزاب: ٣٣).

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٥: ١٩٨، تفسير الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ...﴾.

٢- آية المباهلة

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

يتضمن الأمر بدعوة الأبناء والنساء والأنفس - بصيغ الجمع في الجميع- وامتثال هذا الأمر يقتضى إحضار ثلاثة أفراد من كل عنوان لا أقل منها، تحقيقاً لمعنى الجمع. لكن الذى أتى به النبي ﷺ في مقام امتثال هذا الأمر على ما يشهد به صحيح الحديث والتاريخ لم يكن كذلك، وليس لفعله ﷺ وجه إلا انحصار المصداق فيما أتى به. فالآية بالنظر إلى كيفية امتثالها بما فعل النبي ﷺ تدل على أن هؤلاء هم الذين كانوا صالحين للاشتراك معه في المباهلة وأنهم أحب الخلق إليه، وأعزهم عليه، وأخص خاصته لديه وكفى بذلك فخراً وفضلاً.

ويؤكد دلالتها على ذلك أنه ﷺ كان له عدة نساء ولم يأت بواحدة منهن سوى بنت له، فهل يحمل ذلك إلا على شدة اختصاصها به وحبها لها، لأجل قربها إلى الله وكرامتها عليه؟ كما أن انطباق عنوان (النفس) على عليّ

(١) آل عمران: ٦١.

عليه السلام لا غير، يدل على أعظم فضيلة وأكرم مزية له عليه السلام، حيث نزل منزلة نفس النبي ﷺ (١).

ويؤيده ما رواه الفريقان عن رسول الله ﷺ، حيث قال لعلي عليه السلام: (أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) (٢) وقوله: (أنت منى وأنا منك) (٣).

وقد احتج مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الفضيلة يوم الشورى واعترف بها القوم ولم ينكروا عليه. وقد بلغ الأمر من الوضوح مبلغاً لم يبق فيه مجال للإنكار من مثل ابن تيمية. فقد اعترف بصحة الحديث القائل: بأن نفس رسول الله ﷺ في الآية هو علي عليه السلام، إلا أنه جعل ملاك التنزيل هو القرابة. ولما التفت إلى انتقاضه بعمه العباس حيث إن العم أقرب من ابن العم قال: (إن العباس لم يكن من السابقين، ولا كان له اختصاص بالرسول ﷺ كعلي). فاضطر إلى الاعتراف بأن مناط تنزيل علي

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٨/٨١، تفسير الآية ٦١ من سورة آل عمران، المسألة الخامسة.

(٢) قد أنهى البحراني الروايات الواردة عن النبي ﷺ والمشملة على هذه العبارة من طرق السنة إلى مائة حديث، ومن طرق الشيعة إلى سبعين حديثاً، فراجع غاية المرام وحجة الخصام، : ١/١٠٩-١٥٢.

(٣) خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ٨٨.

العليه ﷺ منزلة نفس النبي^(١) ليس هو القرابة فقط، بل سبقه إلى الإسلام واختصاصه بالنبي ﷺ. وهل يكون اختصاصه به ﷺ إلا لأجل أفضليته من غيره وأقربيته إلى الله سبحانه؟!^(٢).

ثم إن في قوله تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا...﴾ إشارة إلى أن لغيره ﷺ شأنًا في الدعوة إلى المباهلة، حيث أضاف الأبناء والنساء إلى ضمير المتكلم مع الغير، مع أن المحاجة كانت معه ﷺ خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ...﴾. وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٤) كما يؤيده ما ورد فيها من الروايات، وهو مقتضى إطلاق التنزيل في قوله ﷺ لعلى عليه السلام: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى).

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَىٰ

الكَاذِبِينَ﴾^(١)، فإن المراد بالكاذبين هنا ليس كل من هو كاذب في كل إخبار ودعوى، بل المراد هم الكاذبون المغرضون في أحد طرفي المحاجة والمباهلة، فلا محالة يكون المدعى في كلا الجانبين أكثر من واحد، وإلا لكان حق الكلام أن يقال مثلاً: (فنجعل لعنة الله على من هو كاذب) حتى يصح، انطباقه على الفرد أيضاً. فالمشتركون مع النبي ﷺ في المباهلة شركاء له في الدعوى.

وحتى إن المحاجة إنما وقعت بين النبي ﷺ وبين النصاري، لا لمجرد الدعوى بل لأجل دعوتهم إلى الإسلام، وأن الحضور للمباهلة كان تبعاً لتلك الدعوى والدعوة، فحضور من حضر أمانة على كونه الحاضرين مشاركين له في الدعوى والدعوة معاً.

والروايات التي صدرت من الصحابة في آية المباهلة كثيرة جداً، كرواية جابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله ابن عباس، وأبي رافع مولى النبي ﷺ وغيرهم، ورواية جمع من التابعين عنهم كالسعدى والشعبي والكلبي وأبى صالح، وطبقات المحدثين والمؤرخين والمفسرين على إيداعها في موسوعاتهم كمسلم، والترمذى، والطبرى،

(١) آل عمران: ٦١.

(١) سنن الترمذى: ٥/٥٩٦، حديث ٣٧٢٤.

(٢) منهاج السنة ابن تيمية: ٤/٣٣، البرهان التاسع.

(٣) هود: ١٧.

(٤) يوسف: ١٠٨.

وأبى الفداء، والسيوطي، والزمخشري، والرازي باتفاق الروايات وصحتها^(١).

قال جابر: فيهم نزلت ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ قال جابر: (أنفسنا) رسول الله ﷺ وعلى ﷺ و(أبناءنا) الحسن والحسين (عليهما السلام) و(نساءنا) فاطمة (عليها السلام)^(٢).

وإذا كان الإمام على ﷺ نفس النبي وأنه بمنزلته إلا أنه ليس بنبي. يلزم منه أن تكون الصفات الأخرى الثابتة للنبي، ومنها العصمة ثابتة للإمام ﷺ إلا أنه ليس بنبي.

٣- آية الإمامة

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

يمكن الاستفادة من هذه الآية بوجهين، الأول: فيها إشارة من أن الإمامة لا تكون إلا بالنص، والثاني: شرط العصمة في الإمام.

(١) الإمامة والولاية لجمع من العلماء: ١٣٨.

(٢) غاية المرام: ٣٠١ الحديث ٧.

(٣) البقرة: ١٢٤.

تقريب الاستدلال بطريقتين:

الأول: الإمامة لا تكون إلا بالنص بدليل أن الإمامة عهد من الله، كما هو صريح الآية، وهذا العهد لا يمنح إلا من قبل الله، حيث يشاء من عباده ولذا جاء في الآية تعبير الظالمين ولم يُعبّر بـ (الظالمون)، لأن الظالمين مفعول به فالعهد يقع على الإنسان المختار للإمامة، لا الإنسان يقع عليها، وهذا يعني أنه ليس لأحد أن يدّعيها لأن الارتقاء إليها ليس بمقدور الإنسان ولا باختياره فهي منصب ربّاني مختص به لا يشاركه في تعيينها أحد، وبهذا تسقط كل الأطروحات البديلة لمنصب الإمامة التي اخترعها الإنسان مثل الشورى أو الانتخاب أو البيعة أو العهد أو الوراثة.

الثاني: أن المولى قد صرح بأن موقع الإمامة والتصدى لها لا تكون إلا لمن هو معصوم وهذا الشرط الذي سجله المولى يعني أنه سبحانه لا يختار الظالم للإمامة إطلاقاً، فإذا ادّعى الإمامة أحد وخطّ لنفسه صيغة جديدة وتجاوز المنصوص عليه المسدد منه سبحانه فهو ظالم بلا شك^(١).

(١) قد بيّن السيد الطباطبائي (قدس سره) في تفسيره الميزان وهو في

معرض تفسير الآية قائلاً: ويستنتج من هنا أمران:

٤- حديث الثقلين

جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل: أن رسول الله ﷺ، قال: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما)^(١).

ويعتبر هذا الحديث من الأدلة الواضحة في إمامة وعصمة أهل البيت (عليهم السلام)، كما أنه لا شائبة في سنده ولا خدشة في اعتباره.

ويمكن بيان عصمة الأئمة في هذا الحديث بما يلي:
الأول: أمر النبي ﷺ الأمة الإسلامية بعده أن تتمسك بالقرآن الكريم، وأهل البيت (عليهم السلام) والتمسك بهما يورث النجاة ويمنع الضلالة عن الأمة، ويدفع البشرية نحو الهداية.

فقد جاء في الصواعق المحرقة: (فلا تقدموهما

أحدهما، وهو الذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فيبقى الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره. الميزان: ١/ ٢٧٦ ط ٣ طهران ١٣٩٧.

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣: ١٧، ٢٦، ٥٩.

أحدهما: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال والمعصية، وإلا كان غير مهتد بنفسه، كما مر، كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣). فأفعال الإمام خيرات يهتدى إليها لا بهداية من غيره بل اهتداء من نفسه بتأييد إلهي، وتسديد رباني، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ بناءً على أن المصدر المضاف يدل على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخير... الخ فلا يدل على التحقق والوقوع بخلاف قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحى باطنى وتأييد سماوى.

الثاني: عكس الأمر الأول وهو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماماً هادياً إلى الحق البتة.

وبهذا البيان يظهر: أن المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ... الخ مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وإن كان منه في برهة من عمره، ثم تاب وصلاح. وقد سئل بعض أساتيدنا (رحمهم الله): عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام.

فأجاب: أن الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالماً في جميع عمره، ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره، ومن هو ظالم في أول عمره دون آخره، ومن هو بالعكس هذا. وإبراهيم عليه السلام أجل شأناً من أن يسأل الإمامة للقسمة الأول والرابع من ذريته، فيقى قسمان وقد نفى الله

فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا^(١).

والأمر النبوي منصب على التمسك بهما، وكلنا يعلم أن التمسك بالقرآن الكريم يعنى التمسك بمنهج لا يخطئ ويقول لا يكذب، فهو منبع التعاليم الحقة ومصدر السيرة الصالحة فهو يهدى للتي هي أقوم. ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٢).

فالقرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٣) وهو عاصم لمن تمسك به، وقد قرن النبي ﷺ أهل البيت بالقرآن وجعلهما على حد سواء فى التمسك.

والنجاة تقترن بهما ملازمة لكليهما، فلا التمسك بالقرآن وحده كافٍ، ولا بهم -أهل البيت- دون القرآن مغنٍ.

وبما أن القرآن معصوم كذلك أهل البيت معصومون، فلو كان فى القرآن خطأ أو اشتباه لما أمر النبي بالتمسك به، كذلك أهل البيت (عليهم السلام) معصومون بالمقارنة والملازمة، ويعنى التمسك بهما أى طاعتها، وطاعتها

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٤٨.

(٢) إبراهيم: ١.

(٣) فصلت: ٤٢.

مطلقاً يعنى كونها معصومين، ووجوب الطاعة مطلقاً يعنى كون صاحبها معصوماً من الزلل مطهراً من الذنوب، فالنبي ﷺ أمر بطاعته مطلقاً فلو أخطأ أو أذنب فهذا يعنى أن النبي قد أمر باتباع الخطأ والذنب، وهذا محال على النبي ﷺ، لأنه لا يتكلم عن نفسه ولا ينطق عن ذاته بل هو وحى يوحى.

الثانى: حكم النبي ﷺ بأنهما لن يفترقا يوماً من الأيام، وهذا يعنى دوام عصمتها واستمراريتها، ومنه نكتشف أنه لا يخلو زمان من الأزمنة من معصوم، فهما لن يفترقا إلى يوم القيامة، فالأرض لا تخلو من حجة، لأننا نعتقد أن القرآن الكريم خالد ومستمر إلى يوم القيامة.

ولعل قائل يقول: إن المراد بعدم الافتراق هو كون القرآن فى جيوبهم ولا يفارق بيوتهم، أو هم بين الدفتين من القرآن، فهناك آيات تشير إليهم، مثل آية المودة والمباهلة، فهم خالدون بالذكر لا أكثر من ذلك، وهذا هو عدم الافتراق.

والجواب: أولاً: يكفى النبي ﷺ أن يأمر بالتمسك: التمسك بالقرآن وحده، لأنهم حسب ما يدعى المعترض فى القرآن الكريم والأمر بالتمسك بأهل البيت لا مبرر لذكره ولا موجب لبيانه.

وثانياً: بناءً على هذا الفهم فإن الأمة الإسلامية تحمل القرآن وتحفظه بالجملة وهى أيضاً مذكورة فى القرآن

الكريم، فلماذا خصّ أهل البيت: بالذات وذكرهم بالخصوص؟

ثالثاً: لماذا ذكر النبي ﷺ في مطلع حديثه (إني تارك فيكم الثقلين)، فإذا كان أهل البيت مجرد ذكر في القرآن فلماذا أصبحوا ثقلاً، أليس الثقل يعني أماناً للأمة وملجأً للبشرية؟ فاتصافهم بالثقل يدل على عظمتهم وعصمتهم وليس مجرد ذكرهم وبيان أسمائهم.

وقد ذكر الحموي الشافعي الحديث مع اختلاف بسيط: بسنده عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا وهما الخليفتان بعدى ولن يفترقا حتى يردا على الحوض)^(١).

حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفري عن شريك عن الركين عن القاسم بن حسان عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: (إني تارك فيكم خليفتين من بعدى كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على

الحوض)^(١).

فهاتان الروايتان تضيفان كونهما خليفتين، والخليفة هو الذى له الطاعة والولاية والاتباع لا مجرد الذكر.

فالإشكال لا وجه له فى المقام، فأهل البيت (عليهم السلام) هم عدل القرآن الكريم والتمسك بالقرآن أخذ التعاليم والأحكام منه، وكذلك التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) أخذ الأحكام منهم وبيان تفصيلات القرآن الكريم.

ومن الدلالات الأخرى التى يمكن استفادتها من هذا الحديث على عظم منزلتهم وعصمتهم:

إنّ القرآن الكريم فيه من العلوم الإلهية ما يجعلها فوق علوم الأرض كلها.

وأهل البيت (عليهم السلام) هم عدله فهم فى معارفهم الربانية التى حصلوا عليها منه سبحانه يفوقون على من على وجه الأرض.

ومن هذه الرواية المباركة التى ورد فيها لفظ: (كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي).

يستفاد أن الكتاب مع الأئمة هم حبل الله الممتد من

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٧: ٤١٨، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمداً وآله ح ٤١، وكتاب السنّة لعمر بن أبي عاصم: ٣٣٧، ح ٧٥٤ و ١٥٥٥، وكنز العمال للمتقى الهندي ١: ١٧٢، ح ٨٧٢.

(١) الحموي فى فرائد السمطين عن الطريق القويم: ٨٦.

الأرض إلى السماء، فهذا يعنى أنهم الطريق المضمون الموصل إلى الله، وأن الطرق الأخرى إن لم تأخذ عنهم لا تغنى الأمة شيئاً، وقد جاء فى بعض الروايات عن النبي ﷺ، أنه قال: (إني تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به: كتاب الله وعترتى أهل بيتي).

وقد فسّر الشافعي (حبل الله) فى أبياته التى يقول فيها: ولما رأيت الناس قد ذهب بهم

مذاهبهم فى أبحر الغى والجهل

ركبت على اسم الله فى سفن النجا

وهم آل بيت المصطفى خاتم الرسل

وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم

كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل^(١)

فإذا كانوا هم حبل الله، فلا شك أن هذا الحبل مانع عن الضلالة ومبعد عن الغواية إلى يوم القيامة، وهل يمكن أن يفعل الدنس من يكون حياً، أو يقترب الجريمة من يكون وصلاً مع الله سبحانه وتعالى.

فخلص مما تقدم:

١- إن الله أمر فى هذا الحديث باتباع أهل البيت (عليهم السلام) وحاشا أن يأمر رسول الله باتباع المذنبين

(١) شرح الأخبار للقاضى المغربى ٢: ١٢٥، خصائص الوحي المبين للحافظ ابن البطريق: ٢٠، الكنى والألقاب للشيخ القمى ٢: ٣٤٩.

والخاطئين والمخالفين لكتاب الله.

٢- اقترانهم بالقرآن الكريم يدل على كمالهم

وعصمتهم.

٣- فى قول النبي ﷺ: (لن تضلوا بعدي) دلالة على

عصمتهم وكمالهم.

٤- عدم الافتراق والورود على النبي ﷺ يوم القيامة

معاً وعلى الحوض دليل على عصمتهم ودوامها

واستمراريتها إلى يوم القيامة.

٥- وقد جاء فى الحديث لفظ أن السبق على أهل

البيت هلاك، كما هو الوارد فى الصواعق المحرقة: (فلا

تقدموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا

تعلموهم فإنهم أعلم منكم)^(١) وهو يفيد إمامتهم وولايتهم

وعصمتهم.

٦- قد تبين من اقتران أهل البيت (عليهم السلام)

بالقرآن الكريم أنهم لن يخالفوه ولن يعارضوه فى يوم من

الأيام، وهذا أيضاً يدل على عصمتهم وكمالهم.

٧- أمر بالتمسك بهما حتى تحصل النجاة للأمة من

الضلالة، والمذنب لا يعتبر منجياً من الضلالة ولا مانعاً

عنها.

(١) الصواعق المحرقة: ٢٣٠، باب ١١، فضائل أهل البيت، الفصل الأول

فى الآيات الواردة فيهم، الآية الرابعة.

وهناك أحاديث تبين منزلة أمير المؤمنين عليه السلام من القرآن الكريم وكأنها تشير إلى حديث الثقلين. (هذا على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض).

ويمكن أن نقول: إن هذه الرواية خصت الأمر في أمير المؤمنين عليه السلام بعد التعميم الذي ورد في حق أهل البيت (عليهم السلام).

ولا شك أن التمسك بهذا الحديث والابتعاد عن الضلالة ينبغي أن يكون مباشرة وبلا فاصلة بعد النبي صلى الله عليه وآله، لأن النبي صلى الله عليه وآله صرح في بعض ألفاظ هذا الحديث كما جاء عن الحموي: (ألا وهما الخيفتان من بعدى) وخليفة النبي صلى الله عليه وآله من اتصل بعهدته وسار بنهجه.

وقد أورد البعض إشكالا قالوا: إن البخاري لم يخرج هذا الحديث، أي: حديث الثقلين، وهذا يدل على ضعف الحديث ووهنه.

والجواب، نقول: إن الحديث منقول عن مدرسة السنة، ومدرسة الشيعة.

فالسنة ذكرت تسعة وثلاثين حديثاً بعضها عن مسند أحمد بن حنبل، وبعضها في صحيح مسلم، وبعضها عن ابن المغازلي، وبعضها عن الموفق بن أحمد الخوارزمي، وممن ذكره أيضاً من العامة أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشي الكنجي الشافعي المتوفى سنة (٦٥٨هـ) في

كتابه^(١).

وهذه الكتب التي ذكرت هذا الحديث معتبرة عند العامة ولا يمكن الخدش فيها وبعضها معدود في الصحاح الستة، هذا أولاً.

وثانياً: إن البخاري لم يهمل حديث الثقلين المتواتر عند العامة والخاصة وحده في صحيحه كما يدعى، بل أهمل غيره كذلك، فقد أهمل (حديث الولاية يوم الغدير مع تواتره، وحديث المؤاخاه مع كونه من البديهيات، وحديث سد الأبواب غير باب على عليه السلام مع ثبوته، وحديث إنذار عشيرته الأقربين المشتمل على النص بخلافة أمير المؤمنين، ولم يخرج حديث السبب في نزول ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ (المائدة: ٥٥)، ولا حديث السبب في نزول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، ولا شيئاً من الأحاديث في أسباب نزول الآيات الهاتفة بفضل أهل البيت (عليهم السلام)، وقد أهمل أحاديث سفينة نوح وغيرها^(٢).

وثالثاً: إن هذا الحديث باعتماد مسلم صحيح، وقد أخرج في صحيحه، فإذا الحديث الصحيح لا يضره ولا

(١) كفاية الطالب: ١٢٠.

(٢) حاشية الطريق القويم: ٨٨.

يزعزه إن لم يخرجه البخارى فى صحيحه.

أما طرق الشيعة ففيها اثنان وثمانون حديثاً، بعضها عن ابن بابويه، وبعضها عن الكلينى وبعضها عن الشيخ^(١) وبعضها عن العياشى وغيرهم، فيقول ابن بابويه بسنده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنى مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض كهاتين) وضم بين سبابتيه، فقام إليه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله من عترتك؟ قال: على والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين إلى يوم القيامة^(٢).

فالإمام الذى أشارت إليه رواية الثقلين وبيّنت خصوصياته معصوم من الزلزل أعلم من فى الأرض، حجة على عباده، ولا تخلو الأرض منه إلى يوم النشور، فكما أن الله عزّ وجل تكفل ببقاء القرآن إلى يوم القيامة، كذلك المعصوم فهو الحافظ للشريعة، المبيّن لأحكامها، المفسر للقرآن الكريم، والمطلع على علومه وآثاره.

يقول الإمام الرضا عليه السلام: (وإن العبد إذا اختاره الله

(١) الشيخ الطوسى فى أماليه ح ٢٦٨ و ٤٦٠ و ١٠٤٥ و ١١٦٨.

(٢) الطريق القويم: ٨٢.

عزّ وجل لأمر عباده شرح صدره لذلك، وأودع فيه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعى بعد بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعتار، يخصّه الله بذلك ليكون حجته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(١).

فالإمام إذا لا يصدر منه الخطأ والعصيان والذنب سواء كان عن عمد أو سهو، لأنه فى كل الأحوال سوف يفارق القرآن الكريم ولم يقرن به، والذى يجوز على أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الذنب والخطأ وما شاكل فقد كذب قول النبى ﷺ، وادّعى شططاً، ومن خلال الاقتران الدائم والمستمر نكتشف أنّ خط أهل البيت (عليهم السلام) مع القرآن، وأن القرآن معهم، والهدف لهما واحد.

ومن ذيل الرواية التى ينقلها، قال شهاب الخفاجى فى شرحه: (فانظروا كيف تخلفونى فيهما): نستدل على وجوب اتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فإنى أنظر عملكم بكتاب الله واتباعكم لأهل بيتى ورعايتهم وبرهم بعدى، فإن ما يسرهم يسرّنى، وما يسوؤهم يسوؤنى^(٢).

(١) أصول الكافى ١: ٢٠٢ ط آخوندى.

(٢) نسيم الرياض ٣: ٤١٠ عن نفحات الأزهار: ٢٥٨.

الإمام أبي العزائم والعصمة:

يقول الإمام أبو العزائم في كتابه (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) ص ١٧٤، ١٧٥:

(قال: ولا يشترط فيهم، أى: الأئمة، العصمة خلافاً للإسماعيلية والإثنا عشرية، وينقض مذهبهم صحة إمامة أبي بكر رضي الله عنه. والأمة اجتمعت على كونه غير واجب العصمة ولا أقول أنه غير معصوم. احتج المشتروطون للعصمة في الإمام بأن وجه الحاجة إليه: إما أن المعارف الإلهية لا تعلم إلا منه كما هو مذهب أصحاب التعليم، أو تعليم الواجبات العقلية، أو تقريب الخلق إلى الطاعات كما هو مذهب الإثنا عشرية، وذلك لا يحصل إلا إذا كان الإمام معصوماً. وبأن احتياج الناس إلى الإمام لجواز الخطأ عليهم ولو جاز الخطأ عليه لاحتاج إلى إمام آخر، ولقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

وأجيب عن الأول بمنع المقدمات. وعن الثالث بأن الآية تدل على أن شرط الإمام أن لا يكون مشتغلاً بالذنوب التي تنفك بها العدالة لا أن يكون معصوماً أ.هـ.

نتيجة البحث

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، فأراد له الكمال

المنسجم مع إنسانيته، فمنحه الإرادة كميّزة تفوق بها على من سواه من الخلق، ليختار الفكر والسلوك الإلهي المؤدى لكماله، ولما كان العقل عاجزاً بمفرده أن يصل إلى المعارف الإلهية، من هنا جاء اللطف الإلهي متمثلاً في النبوة، لترشده إلى معالم طريق الهداية وتنذره سبيل الغواية والدمار وسوء العاقبة. ثم ضخامة دور الواسطة بين الغيب والناس، يستلزم أن يكون صاحبه معصوماً، لأن غيره لا ينتج لنا إلا الدور الناقص، لاتصافه بالنقص واحتمال الخطأ والمخالفة فيه، والمولى يريد الدور الكامل الذي لا يتم إلا بالشخص المعصوم، فعليه كان النبي والإمام معصومين.

واتفق الإمامية بأن حدّ العصمة وزمانها مطلق منذ الولادة حتى الوفاة، بلا فرق بين زمن البعثة أو قبلها، والنبي والإمام معصومان عن ارتكاب المعاصي صغيرها وكبيرها، وعن الخطأ والنسيان والسهو في الأحكام وغيرها.

أما المدارس الأخرى فاختلقت فيما بينها في مفهوم جواز الذنوب على الأنبياء، بين قائل بعدم جوازها حال النبوة وفي الأحكام، وبين قائل بجوازها في كل الأحوال.

وتأتى ضرورة العصمة في النبوة والإمامة وفق المنظور الإمامي تبعاً لضرورة النبوة والإمامة وأهدافهما. والعصمة لا تعنى سلب الاختيار عن المعصوم، وإنما يأتي اختياره للحسن من الأعمال منطبقاً مع الإرادة

الفصل الحادي عشر

السجود على التربة الحسينية

المقدمة

اعتبرت الشريعة الإسلامية الصلاة ركناً من أركان الدين الإسلامي، وشرعت للصلاة صورتها المطلوبة والتي تتكوّن من أركان وأجزاء وشروط مطلوب توفرها، لتكون الصلاة صحيحة عند المشرّع سبحانه وتعالى.

والسجود ركن من أركان الصلاة الواجبة والمسنونة في الإسلام بلا ريب، بل هو أفضل أجزاء الصلاة وهو من أوضح مظاهر العبودية والانقياد والتذلل من قبل المخلوق لخالقه، وبه يؤكد المؤمن عبوديته المطلقة لله تعالى وهو الغاية القصوى للتذلل والخضوع، ولذلك لم يرخص الله لعباده أن يسجدوا لغيره.

ولا بحث بين المسلمين جميعاً في أن من يسجد له عبادة هو الله سبحانه وتعالى دون غيره، وهو من ضروريات الدين التي يكفر منكرها ويخرج من حظيرة الإيمان.

وأما ما يجوز أن يسجد عليه، فقد اتفق المسلمون جميعاً بمختلف مذاهبهم على صحة السجود على الأرض

الإلهية، فالمعصوم يختار ما يريد الله. وأما العصيان والاستغفار والتوبة والظلم في حياة الأنبياء، هذه المفردات التي وردت في القرآن الكريم، والذي ظن البعض بأنها تشير إلى جواز ارتكاب المخالفة، فهذا التصور ناشئ من تطبيق مفهوم النهي التحريمي المستلزم للعقوبة بخصوص أفعال الأنبياء، أما لو حملنا النهي على الإرشادي فلا يبقى دليل عند من يذهب إلى جواز المعصية عند الأنبياء، ثم ليس بصحيح أن تكون مناشئ الاستغفار مطلقاً عن ذنب، وكذا الحال في التوبة والظلم، بل قد يكون لها مناشئ أخرى غير الذنب، كما مرّ بيانه في ثنايا البحث.

ثم إن العصمة تفارق العدالة بمعناها المتعارف، لأن العادل قد يصدر منه الخطأ والمعصية وقد لا يصدر، بسبب كون المقتضى لها في نفس العادل موجوداً، وعلى هذا الأساس إذا صدر من العادل معصية ثم تاب عنها رجع إلى صفة العدالة. أما المعصوم فلا يصدر منه العمل القبيح مطلقاً، بل لا يفكر به أصلاً، لأن المقتضى للمعصية في نفس المعصوم غير موجود.

وأخيراً فإن كل الأدلة التي تثبت العصمة للنبي ﷺ تنسحب على الأئمة (عليهم السلام) بالإضافة للأدلة الخاصة للعصمة عندهم من آيات وأحاديث نبوية، مثل: آية التطهير، وحديث الثقلين، وغيرهما.

وترابها، بل على أفضلية السجود على تراب الأرض، حسبما وردت به النصوص النبوية الشريفة. وسوف نركز البحث على استقراء النصوص الشريفة الواردة حول ما يصح عليه السجود وما لا يصح، لنرى الموقف الشرعي من السجود على الأرض وترابها أولاً. وحكم السجود على ما أنبتته مما لا يؤكل ولا يلبس ومما يؤكل ويلبس ثانياً. ونكتشف من خلال هذه النصوص السنة من البدعة ثالثاً. وحكم السجود على التراب رابعاً. وفضيلة التربة الحسينية وما تمتاز به خامساً، ومن خلاله نكتشف السر في الاهتمام بالتربة الحسينية واتخاذ قطع منها للسجود عليها عند جمع من المسلمين. وسوف نقدّم هذه البحوث كما يلي:

البحث الأول: النصوص الواردة حول ما يسجد عليه

نقدّم في هذه الفقرة ما جاء في الصحاح الست، وغيرها من أمّهات المسانيد والسنن، من سنة رسول الله ﷺ الواردة فيما يصح السجود عليه، ونمضى على ضوئها ونتخذها سنة متبعة، وطريقة حقة لا محيد عنها، وهي على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

- ما يدل على صحة السجود على الأرض.
- ١- جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. وفي لفظ مسلم: جعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء. وفي لفظ الترمذي: جعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً. عن علي، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وجابر، وابن عباس، وحذيفة وأنس، وأبي أمامة، وأبي ذر.
 - وفي لفظ البيهقي: جعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً. وفي لفظ له أيضاً: جعلت لي الأرض طيبة ومسجداً، وأيما أدركته الصلاة صلى حيث كان^(١).
 - ٢- الأرض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصل، قال ﷺ لأبي ذر^(٢).
 - ٣- ابن عباس: إن النبي ﷺ سجد على الحجر^(٣).

(١) صحيح البخاري ١: ٨٦، ١١٣، صحيح مسلم ٢: ٦٤، صحيح النسائي ٢: ٣٢، صحيح أبي داود ١: ٧٩، صحيح الترمذي ٢: ١١٤، السنن الكبرى ٢: ٤٣٣، ٤٣٥.

(٢) صحيح النسائي ٢: ٣٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣: ٤٧٣ وصححه هو والذهبي.

٤- أبو سعيد الخدري، قال: أبصرت عيناى رسول الله ﷺ وعلى أنفه وجبهته أثر الماء والطين^(١).
 ٥- رفاعة بن رافع مرفوعاً، ثم يكبر فيسجد فيمكن جبهته من الأرض حتى تظمنّ مفاصله وتستوي^(٢).
 ٦- ابن عباس، وأنس، وبريدة بإسناد صحيح مرفوعاً: ثلاثة من الجفاء: يمسح جبهته قبل أن يفرغ من صلاته. وفي لفظ وائلة بن الأسقع: لا يمسح الرجل جبهته من التراب حتى يفرغ من الصلاة^(٣).
 ٧- جابر بن عبد الله، قال: كنت أصلى مع رسول الله ﷺ الظهر فأخذ قبضة من حصى في كفي لتبرد حتى أسجد عليه من شدة الحر.
 وفي لفظ لأحمد: كنا نصلى مع رسول الله ﷺ صلاة الظهر، وأخذ بيدي قبضة من حصى فأجعلها في يدي الأخرى حتى تبرد ثم أسجد عليها من شدة الحر.
 وفي لفظ البيهقي: كنت أصلى مع رسول الله ﷺ صلاة

(١) صحيح البخاري ١: ١٦٣، ١٩٨، ٢: ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨،

٢٥٩، سنن أبي داود ١: ١٤٣، ١٤٤، السنن الكبرى ٢: ١٠٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢: ١٠٢.

(٣) أخرجه البزار والطبراني، راجع مجمع الزوائد ٢: ٨٣-٨٤، باب

مسح الجبهة في الصلاة.

الظهر فأخذ قبضة من الحصى في كفي حتى تبرد، وأضعها بجبهتي إذا سجدت من شد الحر.
 فقال البيهقي، قال الشيخ: ولو جاز السجود على ثوب متصل به لكان ذلك أسهل من تبريد الحصى في الكف ووضعها للسجود عليه، وبالله التوفيق^(١).
 ٨- أنس بن مالك: كنا نصلى مع رسول الله ﷺ في شدة الحر فيأخذ أحدنا الحصباء في يده فإذا برد وضعه وسجد عليه^(٢).
 ٩- خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ شدة الرمضاء في جباهنا وأكفنا فلم يُشكنا^(٣).
 ١٠- عمر بن الخطاب: مُطرنا من الليل فخرجنا لصلاة الغداة فجعل الرجل يمرّ على البطحاء فيجعل في ثوبه من الحصباء فيصلى عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، قال: ما أحسن هذا البساط. فكان ذلك أول بدء الحصباء.
 وأخرج أبو داود عن ابن عمر: مطرنا ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يأتي بالحصى في

(١) مسند أحمد ١: ٣٢٧، السنن الكبرى للبيهقي ٢: ١٠٥.

(٢) السنن الكبرى ٢: ١٠٦.

(٣) السنن الكبرى ٢: ١٠٥، ١٠٧، نيل الأوطار ٢: ٢٦٨.

ثوبه فيبسطه تحته... الحديث^(١).

١١- عياض بن عبد الله القرشي: رأى رسول الله رجلاً يسجد على كور عمامته، فأوماً بيده ارفع عمامتك، وأوماً إلى جبهته^(٢).

١٢- على أمير المؤمنين: إذا كان أحدكم يصلى فليحسر العمامة عن جبهته^(٣).

١٣- نافع: إن عبد الله بن عمر كان إذا سجد وعليه العمامة يرفعها حتى يضع جبهته بالأرض^(٤).

١٤- عبادة بن الصامت: أنه كان إذا قام إلى الصلاة حسر العمامة عن جبهته^(٥).

١٥- أبو عبيدة: إن ابن مسعود كان لا يصلى أو لا يسجد إلا على الأرض^(٦).

١٦- إبراهيم: أنه كان يقوم على البردي ويسجد على

(١) أبو داود ١: ٧٥، السنن الكبرى ٢: ٤٤٠.

(٢) السنن الكبرى ٢: ١٠٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) السنن الكبرى ٢: ١٠٥.

(٥) السنن الكبرى ٢: ١٠٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير ٩: ٣٥٥، وعنه في مجمع الزوائد ٢:

٥٧.

الأرض. فقلنا: ما البردي؟ قال: الحصير^(١).

١٧- صالح بن حيوان السبائي: إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسجد بجبينه وقد اعتم على جبهته فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته^(٢).

القسم الثاني:

فيما ورد في السجود على غير الأرض من دون أي عذر

١- أنس بن مالك: إن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعت له، فأكل منه ثم قال: قوموا فلاصلى بكم، قال أنس: فقمتم إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس، فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ ووصفت، واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا... الحديث^(٣).

إن أم سليم سألت رسول الله ﷺ: أن يأتيها فيصلى في بيتها فتتخذ مصلى (فأتاها)، فعمدت إلى حصير فنضحته

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٩: ٣٥٥، وعنه في مجمع الزوائد ٢: ٥٧.

(٢) السنن الكبرى ٢: ١٠٥، نصب الراية للزيلعي ١: ٣٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١: ١٠١، وفي النسائي ٢: ٥٧.

بماء فصلى عليه وصلوا معه^(١).

فقال: قال أبو عبد الله بن ماجة: الفحل هو الحصير الذي قد اسودّ.

وفي سنن البيهقي^(٢): كان رسول الله ﷺ يقبل^(٣) عند أمّ سليم، فتبسط له نطعاً فتأخذ من عرقه فتجعله في طيبها، وتبسط له الخمرة ويصلى عليها^(٤).

قال في هامش السنن: الفحل: حصير معمول من

سعف فحال النخل^(١).

٢- ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يصلى على الخمرة^(٢).

٣- أبو سعيد الخدري: إنه دخل على النبي ﷺ فرآه يصلى على حصير يسجد عليه^(٣).

٤- ميمونة أمّ المؤمنين: كان رسول الله ﷺ يصلى وأنا حذاؤه وربما أصابني ثوبه إذا سجد، وكان يصلى على خمرة^(٤).

٥- ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يصلى على الخمرة

(١) وفي لفظ ابن ماجة في سننه ١: ٢٥٥، قال: صنع بعض عمومي للنبي طعاماً فقال للنبي ﷺ: إني أحب أن تأكل في بيتي وتصلي فيه، قال: فأتاه وفي البيت فحلّ من هذه الفحول فأمر بناحية منه فكنس ورشّ فصلّى وصلينا معه.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٢: ٤٢١.

(٣) من قال يقبل قيلولة. نام في القائلة أي: منتصف النهار.

(٤) وفي السنن ٢: ٤٣٦، بلفظ كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً فربما تحضره الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس ثم ينضح ثم يقوم فنقوم خلفه فيصلّى بنا. قال: وكان بساطهم من جريد النخل. وفيه أيضاً بلفظ: إن رسول الله ﷺ دخل بيتاً فيه فحلّ فكسح ناحية منه ورشّ فصلّى عليه.

(١) وأخرجه الترمذي في الصحيح ٢: ١٢٨ ملخصاً عن أنس قال: نضح بساط لنا فصلّى عليه.

(٢) صحيح الترمذي ٢: ١٢٦، قال الإمام ابن العربي المالكي: الخمرة حصيرة الصلاة.

(٣) صحيح مسلم ٢: ٦٢، ١٢٨، وأخرجه ابن ماجة في السنن ١: ٣٢١، والترمذي في جامعه ٢: ١٢٧ وليس فيها: يسجد عليه.

(٤) البخاري ١: ١٠١، مسلم ٢: ١٢٨، ابن ماجة ١: ٣٢٠، النسائي ٢: ٥٧، البيهقي ٢: ٤٢١. وأخرج مسلم ١: ١٦٨ عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد قالت: فقلت: إني حائض فقال: إن حيضتك ليست في يدك.

ويسجد عليها^(١).

٦- أم سلمة أم المؤمنين: كان لرسول الله حصيرة وخمرة يصلى عليها^(٢).

٧- أنس: كان رسول الله ﷺ يصلى على الخُمرة ويسجد عليها^(٣).

القسم الثالث:

فيما ورد في السجود على غير الأرض لعذر

١- أنس بن مالك: كنا إذا صلينا مع النبي ﷺ فلم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض من شدة الحر، طرح ثوبه ثم سجد عليه.

وفي لفظ البخاري: كنا نصلى مع النبي ﷺ فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر في مكان السجود.

وفي لفظ مسلم: كنا نصلى مع النبي ﷺ في شدة الحر،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٨: ٣٤٨، والكبير ١٢: ٢٩٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط ٦: ٢٨٨، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وعن أم حبيبة أم المؤمنين مثله صحيحاً كما في مجمع الزوائد ٢: ٥٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير بأسانيد بعضها صحيح، رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ٢: ٥٧.

فإذا لم يستطع^(١) أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه.

وفي لفظ: كنا إذا صلينا مع النبي ﷺ فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر مكان السجود^(٢).

قال الشوكاني في نيل الأوطار: الحديث يدل على جواز السجود على الثياب لاتقاء حرّ الأرض، وفيه إشارة إلى أن مباشرة الأرض عند السجود هي الأصل، لتعليق بسط الثوب بعدم الاستطاعة.

٢- أنس بن مالك: كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ بالظهائر سجدنا على ثيابنا اتقاء الحر.

أخرجه ابن ماجة في سننه^(٣) وقال الإمام السندي في شرحه: الظهائر جمع ظهيرة وهي شدة الحر نصف النهار.

وعلى هذه الصورة يحمل ما جاء عن ابن عباس:

(١) في لفظ ابن ماجة: لم يقدر.

(٢) البخاري ١: ١٠١، مسلم ٢: ١٠٩، ابن ماجة ١: ٣٢١، أبو داود ١:

١٠٦، سنن الدارمي ١: ٣٠٨، مسند أحمد ١: ١٠٠، السنن الكبرى ٢:

١٠٦، نيل الأوطار ٢: ٢٦٨.

(٣) سنن ابن ماجة ٢: ٢١٦.

رأيت رسول الله ﷺ يسجد على ثوبه^(١).

وأخرج البخاري^(٢) في باب السجود على الثوب في شدة الحر: وقال الحسن: كان القوم يسجدون على العمامة والقلنسوة ويداه في كفه.

وهناك مرفوعة أخرجه أحمد^(٣) عن محمد بن ربيعة عن يونس بن الحرث الطائفي عن أبي عون عن أبيه عن المغيرة بن شعبة قال: كان رسول الله ﷺ يصلى أو يستحب أن يصلى على فروة مدبوغة^(٤).

والإسناد ضعيف بالمرّة وبمثلّه لا يستدلّ في الأحكام، فيه يونس ابن الحرث، قال أحمد: أحاديثه مضطربة، وقال عبد الله بن أحمد: سألته عنه مرّة أخرى فضعفه، وعن ابن معين: لا شيء، وقال أبو حاتم ليس بقوى، وقال النسائي: ضعيف. وقال مرّة: ليس بالقوى، وقال ابن أبي شيبة: سألت ابن معين عنه، فقال: كنا نضعفه ضعفاً

(١) أخرجه أبو يعلى، والطبراني في الكبير ١١ : ٨٤.

(٢) صحيح البخاري ١ : ١٠١، باب السجود على الثوب في شدة الحر.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٢٥٤.

(٤) وأخرجه أبو داود ١ : ١٠٦، والبيهقي في السنن ٢ : ٤٢٠ بالإسناد

المذكور.

شديداً، وقال الساجي: ضعيف^(١).

وفيه أبو عون عبيد الله بن سعيد الثقفي الكوفي، قال أبو حاتم كما في الجرح والتعديل لابنه: هو مجهول، وقال ابن حجر: حديثه عن المغيرة مرسل.

على أن متن المرفوعة ساكت عن السجدة وحكمها، والملازمة بين الصلاة على الفروة والسجدة عليها منتفية.

القول الفصل:

هذا تمام ما ورد في الصحاح والمسانيد مرفوعاً وموقوفاً فيما يجوز السجود عليه برمته، ولم يبق هناك حديث لم نذكره، وهي تدل بنصها على أن الأصل في ذلك لدى القدرة والإمكان الأرض كلها، ويتبعها المصنوع مما ينبت منها أخذاً بأحاديث الخمرة والفحل والحصير والبساط، ولا مندوحة عنها عند فقدان العذر، وأما في حال العذر وعدم التمكن منها فيجوز السجود على الثوب المتصل دون المنفصل لعدم ذكره في السنة.

وأما السجدة على الفراش والسجاد والبسط المنسوجة من الصوف والوبر والحريز وأمثالها والثوب فلا دليل يسوغها قطّ، ولم يرد في السنة أي مستند لجوازها، وهذه الصحاح الست- وهي تتكفل ببيان أحكام الدين ولاسيما

(١) تهذيب التهذيب ١١ : ٤٣٧.

الصلاة التي هي عماده- لم يوجد فيها ولا حديث واحد، ولا كلمة إيماء وإيعاز إلى جواز ذلك. وكذلك بقية أصول الحديث من المسانيد والسنن المؤلفة في القرون الأولى الثلاثة ليس فيها أي أثر يمكننا الاستدلال به على جواز ذلك من مرفوع أو موقوف، أو مرسل.

فالقول بجواز السجود على الفرش والسجاد والالتزام بذلك، وافتراش المساجد بها للسجود عليها كما تداول عند الناس بدعة محضة، وأمر محدث غير مشروع، يخالف سنة الله ورسوله، وقد أخرج الحافظ الكبير الثقة أبو بكر ابن أبي شيبة بإسناده في المصنف في المجلد الثاني عن سعيد ابن المسيب وعن محمد بن سيرين: إن الصلاة على الطنفسة محدث. وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: شرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة^(١).

البحث الثاني: أفضلية السجود على تراب الأرض

لقد ورد الأمر بالترتيب في النصوص الشريفة، والأمر دال على الأفضلية والمطلوبية إن لم يكن دالاً على الوجوب.

(١) راجع سيرتنا وسنتنا للأميني (سيرة نبينا وسنته) : ١٤٦ - ١٥٧.

واليك جملة من الروايات الآمرة بالترتيب في السجود، وهي تفيد أفضلية السجود على تراب الأرض بلا ريب.

١- عن خالد الجهني: قال: رأى النبي ﷺ صهيياً يسجد كأنه يتقي التراب، فقال له: "ترب وجهك يا صهيبي"^(١).

٢- والظاهر أن صهيياً كان يتقي عن التتريب بالسجود على الثوب المتصل والمنفصل، ولا أقل بالسجود على الحصر والبواري والأحجار الصافية، وعلى كل تقدير، فالحديث شاهد على أفضلية السجود على التراب في مقابل السجود على الحصى لما دل من جواز السجدة على الحصى في مقابل السجود على غير الأرض.

٣- روت أم سلمة - رضي الله عنها-: رأى النبي ﷺ غلاماً لنا يقال له: "أفلح" ينفخ إذا سجد، فقال: "يا أفلح ترب"^(٢).

٤- وفي رواية: "يا رباح ترب وجهك"^(٣).

٥- روى أبو صالح قال: دخلت على أم سلمة، فدخل عليها ابن أخ لها فصلّى في بيتها ركعتين، فلما سجد نفخ

(١) كنز العمال للمتقي الهندي ٧: ٤٦٥ برقم ١٩٨١٠.

(٢) المصدر السابق ٧: ٤٥٩ برقم ١٩٧٧٦.

(٣) كنز العمال ٧: ٤٦٥، برقم ١٩٧٧٧.

فإذا حسين في حجره والنبى ﷺ يمسح جبينه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت حين دخل، فقال: "إن جبرائيل عليه السلام كان معنا في البيت، قال: أفتحبه؟ قلت: أما في الدنيا فنعم"، قال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء، فتناول جبرائيل من تربتها فأراها النبى ﷺ فلما أحيط بحسين حين قتل قال: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، فقال: صدق رسول الله كرب وبلاء^(١).

محمد بن المشهدي في المزار الكبير، بإسناده عن إبراهيم بن محمد التقي، عن أبيه، عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: "إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كان سبحتها من خيط مفنل، معقود عليه عدد التكبيرات، وكانت (عليها السلام) تديرها بيدها تكبر وتسبح حتى قتل حمزة بن عبد المطلب فاستعملت تربته وعملت التسابيح، فاستعملها الناس، فلما قتل الحسين عليه السلام عدل بالأمر إليه، فاستعملوا تربته، لما فيه من الفضل والمزية"^(٢).

(١) مجمع الزوائد للهيتمي ٩: ١٨٥ - ١٨٩، باب مناقب الحسين عليه السلام .

(٢) مستدرک الوسائل ٤: ١٢، باب ٩ من أبواب استحباب السجود على تربة الحسين عليه السلام، ح ٤٠٥٦، نقلاً عن المزار الكبير للمشهدي، والبحار ١٠١: ١٣٣، ح ٦٤٤، ووسائل الشيعة ٦: ٤٥٥، باب ١٦ باب اتخاذ سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام، ح ٨٤٢٧.

التراب، فقالت أم سلمة: ابن أخي لا تتفخ، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول لغلام له يقال له يسار - ونفخ - "ترب وجهك لله"^(١).

البحث الثالث: فضيلة التربة الحسينية

كان الأوزاعي وهو أستاذ أبي حنيفة، إذا أراد السفر من المدينة حمل معه طينة منها ليسجد عليها فسئل عن ذلك، فقال: إن أفضل بقعة في الأرض هي البقعة التي دفن عليها رسول الله ﷺ، وأحب أن يكون سجودي لله تعالى عليها^(٢).

عن عائشة أو أم سلمة، إن النبي ﷺ قال لإحدهما: "لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبليها، فقال لي: إن ابنك هذا الحسين مقتول وإن شئت أرينك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء"^(٣).

عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ جالساً ذات يوم في بيته، قال: "لا يدخل علي أحد"، فانتظرت فدخل الحسين عليه السلام فسمعت نشيج رسول الله ﷺ يبكي، فاطلعت

(١) كنز العمال للمفتي الهندي ٧: ٤٦٥، برقم ١٩٨١٠، ومسنند أحمد ٦: ٣٠١.

(٢) انظر هذه هي الشيعة، باقر شريف القرشي: ٢٦٧ - ٢٧٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٧: ٤١٨، حديث أم سلمة، ح ٢٥٩٨٥.

"يا نبي الله، بأبي أنت وأمي مالك؟! "
 قال: "أتاني جبرائيل فأخبرني أن أمي ستقتل ابني
 هذا. وذعرت أم الفضل وراحت تقول:
 "يقتل هذا - وأشارت إلى الحسين...؟".
 قال: "نعم وأتاني جبرائيل بتربة من تربته حمراء"^(١).
 وروت السيدة عائشة رضی الله عنها قالت: دخل
 الحسين بن عليّ على رسول الله وهو يوحي إليه فنزا
 على رسول الله، وهو منكب فقال جبرائيل: أ تحبه يا
 محمد؟ قال: وما لي لا أحب ابني؟ قال: فإن أمك ستقتله
 من بعدك، فمدّ جبرائيل يده فأثاه بتربة بيضاء، فقال: في
 هذه الأرض يقتل ابنك هذا، واسمها الطف، فلما ذهب
 جبرائيل من عند رسول الله ﷺ والتربة في يده وهو يبكي
 فقال: "يا عائشة إن جبرائيل أخبرني أن ابني حسيناً مقتول
 في أرض الطف، وأن أمي ستفتن بعدي".
 ثم خرج إلى أصحابه وفيهم على وأبو بكر وحذيفة
 وعمار وأبو ذر وهو يبكي فبادروا إليه قائلين: "ما يبكيك
 يا رسول الله؟..".

قال: "أخبرني جبرائيل أن ابني الحسين يقتل من بعدي
 بأرض الطف وجاءني بهذه التربة، وأخبرني أن فيها

(١) مستدرک الحاكم ٣: ١٧٦ و٤: ٣٩٨، كتاب تعبير الرؤيا.

إن أرض كربلاء كأرض مكة والمدينة محاطة بهالة
 من التقديس والتعظيم، ويقول الرواة: إن الإمام أمير
 المؤمنين عليه السلام لما اجتاز على أرض كربلاء أخذ قبضة
 من ترابها فشمها وبكى حتى بل الأرض بدموعه، وهو
 يقول: "يحشر من هذا الظهر سبعون ألفاً يدخلون الجنة
 بغير حساب"^(١). وروت أم المؤمنين السيدة أم سلمة،
 قالت: إن رسول الله ﷺ اضطجع ذات ليلة للنوم وهو
 حائر - أي مضطرب - ثم اضطجع وهو حائر دون ما
 رأيت به المرة الأولى، ثم اضطجع وفي يده تربة حمراء،
 وهو يقلبها، فقلت له: "ما هذه التربة يا رسول الله...؟"
 فقال: "أخبرني جبرائيل أن هذا - وأشار إلى الحسين -
 يقتل بأرض العراق، فقلت لجبرائيل: أرني تربة الأرض
 التي يقتل بها فهذه تربته"^(٢).

وروت السيدة أم الفضل بنت الحارث، قالت: إن
 الحسين في حجري فدخلت على رسول الله ﷺ ثم حانت
 مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدموع،
 فقلت له:

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٩١.

(٢) مستدرک الحاكم ٤: ٣٩٨، كنز العمال ٧: ١٠٦، سير أعلام النبلاء

٣: ١٥، ذخائر العقبى: ١٤٨.

مضجعه" (١).

وروت السيد أم سلمة، قالت: كان الحسن والحسين يلعبان بين يدي النبي ﷺ في بيتي فنزل جبرائيل ، فقال: يا محمد إن أمك تقتل ابنك هذا من بعدك - وأشار إلى الحسين - فبكى رسول الله ﷺ وضمه إلى صدره، وهو يقول: "ويح كرب وبلاء" وناولها أم سلمة فقال لها: "إذا تحولت هذه التربة دماً فاعلمي أن ابني قد قتل...". فجعلتها أم سلمة في قارورة، وجعلت تتعاهدها كل يوم وهي تقول: إن يوماً تتحولين دماً ليوم عظيم (٢). وكثير من أمثال هذه الأحاديث رواها الثقات من علماء السنة عن النبي ﷺ في تقديسه للبقعة المباركة التي استشهد على ثراها حفيده وريحانته الإمام الحسين عليه السلام، فأبي نقص إن اتخذت من ثرى تلك البقعة تربة يسجد عليها لله تعالى وحده لا شريك له!!.

البحث الرابع: لماذا الاهتمام بالسجود على التربة الحسينية؟

إن الغاية المتوخاة من السجدة على تربة كربلاء إنما تستند إلى أصليين قويمين، وتتوقف على أمرين قيمين: أولهما: استحسان اتخاذ المصلي لنفسه تربة طاهرة طيبة يتيقن بطهارتها، من أي أرض أخذت، ومن أي صقع من أرجاء العالم كانت، وهي كلها في ذلك شرع سواء، لا امتياز لإحداهن على الأخرى في جواز السجود عليها، وإن هو إلا كراعية المصلي طهارة جسده وملبسه ومصلاه، يتخذ المسلم لنفسه صعيداً طيباً يسجد عليه في حله وترحاله، وفي حضره وسفره، ولاسيما في السفر، إذ الثقة بطهارة كل أرض يحل بها، ويتخذها مسجداً لا تتأني له في كل موضع من المدن والرساتيق والفنادق والخانات وباحات النزل والساحات، ومحال المسافرين، ومحطات وسائل السير والسفر، ومنازل الغرباء، أنى له بذلك؟ وقد يحل بها كل إنسان من الفئة المسلمة وغيرها، ومن أخلط الناس الذين لا يباليون ولا يكثرثون لأمر الدين في موضوع الطهارة والنجاسة.

فأبي مانع من أن يحترز المسلم في دينه، ويتخذ معه تربة طاهرة يطمئن بها وبطهارتها يسجد عليها لدى صلاته، حذراً من السجدة على الرجاسة والنجاسة

(١) مجمع الزوائد ٩: ١٨٧، وفي تهذيب الكمال: ٧١، أن النبي أخذ التربة التي جاء بها جبرائيل فجعل يشمها ويقول: "ويح كرب وبلاء".

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٣: ١٠٨، في باب ترجمة الإمام الحسين عليه السلام .

المجلد الثاني في باب: من كان يحمل في السفينة شيئاً يسجد عليه، فأخرج بإسنادين: أن مسروقاً كان إذا سافر حمل معه في السفينة لبنة يسجد عليها.

هذا هو الأصل الأول لدى الشيعة ولهم فيه سلف من الصحابة الأولين والتابعين لهم بإحسان.

وأما الأصل الثاني: فإن قاعدة الاعتبار المطردة تقتضي التفاضل بين الأراضي، بعضها على بعض، وتستدعي اختلاف الآثار والشؤون والنظرات فيها، وهذا أمر طبيعي عقلي متسالم عليه، مطرد بين الأمم، إذ بالإضافة والنسب تقبل الأراضي والأماكن والبقاع خواصاً ومزايا، بها تجري عليها مقررات، وتنتزع أحكاماً لا يجوز التغاضي والصفح عنها.

ألا ترى أن الساحات والقاعات والدور والدوائر الرسمية المضافة إلى الحكومات، وبالأخص ما ينسب منها إلى البلاط الملكي، ويعرف باسم عاهل البلاد وشخصه، لها شأن خاص، وحكم ينفرد بها، يجب للشعب رعايته، والجري على ما صدر فيها من قانون؟

فكذلك الأمر بالنسبة إلى الأراضي والأبنية والديار المضافة المنسوبة إلى الله تعالى، فإن لها شؤوناً خاصة، وأحكاماً وطقوساً، ولوازم وروابط لا بد لمن أسلم وجهه لله من أن يراعيها ويراقبها.

فهذا الاعتبار العام المتسالم عليه انتزع للكعبة حكمها

والأوساخ التي لا يتقرب بها إلى الله قط؟ ولا تجوز السنة السجود عليها، ولا يقبله العقل السليم، بعد ذلك التأكيد التام البالغ على طهارة أعضاء المصلى ولباسه، والنهي عن الصلاة في مواطن منها، المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومعاطن الإبل^(١)، والأمر بتطهير المساجد وتطيبها^(٢).

وهذه النظرة كانت متخذة لدى رجال السلف في القرون الأولى، وأخذاً بهذه الحيطة كان التابعي الفقيه مسروق بن الأجدع^(٣) يأخذ في أسفاره لبنة يسجد عليها، كما أخرج أبو بكر ابن أبي شيبة في كتابه "المصنف" في

(١) سنن ابن ماجه ١: ٢٥٢، ومسند وسنن أخرى.

(٢) سنن ابن ماجه ١: ٢٥٦ ومصادر أخرى.

(٣) مسروق ابن الأجدع عبد الرحمن بن مالك الهمداني أبو عائشة المتوفى ٦٢، تابعي عظيم من رجال الصحاح الست، يروي عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. كان فقيهاً عابداً ثقةً صالحاً، كان في أصحاب ابن مسعود الذين كانوا يعلمون الناس السنة، وقال حين حضره الموت كما جاء في طبقات ابن سعد: اللهم لا أموت على أمر لم يسنه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر. راجع تاريخ البخاري الكبير ٤: ٢: ٣٥، طبقات ابن سعد ٦: ٥٠-٥٦، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤: ١: ٣٩٦، تهذيب التهذيب ١٠: ١٠٩-١١١.

الخاص، وللحرم شأن يخص به، وللمسجدين الشريفين (جامع مكة والمدينة) أحكامهما الخاصة بهما، وللمساجد العامة والمعابد والصوامع والبيع التي يذكر فيها اسم الله، في الحرمة والكرامة، والتطهير والتنجيس، ومنع دخول الجنب والحائض والنفساء عليها، والنهي عن بيعها نهياً باتاً، خلاف بقية الأوقاف الأهلية العامة التي لها مسوعة لبيعها وتبديلها بالأحسن، إلى أحكام وحدود أخرى منتزعة من اعتبار الإضافة إلى ملك الملوك، رب العالمين.

فاتخاذ مكة المكرمة حرماً آمناً، وتوجيه الخلق إليها، وحجهم إليها من كل فج عميق، وإيجاب كل تلكم النسك، وجعل كل تلكم الأحكام حتى بالنسبة إلى نبتها، إن هي إلا آثار الإضافة، ومقررات تحقق ذلك الاعتبار، وهي السبب في اختيار الله إياها من بين الأراضي.

وكذلك عدّ المدينة المنورة حرماً إلهياً محترماً، وجعل كل تلكم الحرمات الواردة في السنة الشريفة لها وفي أهلها وتربتها ومن حل بها ومن دفن فيها، إنما هي لاعتبار ما فيها من الإضافة والنسبة إلى الله تعالى، وكونها عاصمة عرش نبيه الأعظم صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ وآله.

وهذا الاعتبار وقانون الإضافة كما لا يخص بالشرع فحسب، بل هو أمر طبيعي أقرّ الإسلام الجري عليه، كذلك لا ينحصر هو بمفاضلة الأراضي، وإنما هو أصل

مطرد في باب المفاضلة في مواضيعها العامة من الأنبياء والرسل، والأوصياء، والأولياء والصدّيقين، والشهداء، وأفراد المؤمنين وأصنافهم، إلى كل ما يتصور له فضل على غيره في مقاييس الإسلام الثابتة. بل هذا الأصل هو محور دائرة الوجود، وبه قوام كل شيء، وإليه تنتهي الرغبات في الأمور، ومنه تتولد الصلوات والمحبات، والعلائق والروابط.

وعليه فننا أن نسأل: ما الذي دعا النبي ﷺ إلى أن يبكي على ولده الحسين السبط، ويقيم كل تلكم المآتم ويأخذ تربة كربلاء ويشمّها ويقبلها؟ وما الذي جعل السيدة أم سلمة أم المؤمنين تصرّ تربة كربلاء على ثيابها؟

وما الذي سوّغ للصديقة فاطمة أن تأخذ تربة روضة أبيها الطاهر وتشمّها؟

وما الذي جعل علياً أمير المؤمنين عليه السلام يأخذ قبضة من تربة كربلاء لمّا حلّ بها، فيشمّها ويبكي حتى يبلى الأرض بدموعه، وهو القائل: يحشر من هذا الظهر سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. كما أخرج الطبراني وقد قال الهيثمي^(١): رجاله ثقات.

وهكذا يتضح لدى الباحث النابه الحرّ سرّ فضيلة تربة

(١) مجمع الزوائد ٩: ١٩١.

كربلاء المقدسة. ومبلغ انتسابها إلى الله سبحانه وتعالى، ومدى حرمتها وحرمة صاحبها دنواً واقتراباً من العلى الأعلى، فما ظنك بحرمة تربة هي مثنوى حبيبه وابن حبيبه، والداعي إليه، والدال عليه، والناهض له، والبازل دون سبيله أهله ونفسه ونفيسه، والواضع دم مهجته في كفه إعلاءً لكلمته، ونشر توحيده، وتحكيم معالمه، وتوطيد طريقه وسبيله.

كيف لا يديم ذكره في أرضه وسمائه، وقد أخذت محبة الله بمجامع قلبه؟

أفليست السجدة على تربة هذا شأنها لدى التقرب إلى الله في أوقات الصلوات، أطراف الليل والنهار، أولى وأحرى من البسط والفرش والسجاد المنسوجة ولم يوجد في السنة أي مسوغ للسجود عليها؟

أليس أجدر بالتقرب إلى الله، وأقرب بالزلفي لديه، وأنسب بالخضوع والخشوع والعبودية له تعالى أمام حضرته، وضع صفح الوجه والجباه على تربة في طيها دروس الدفاع عن الله. ومظاهر قدسه، ومجلي التحامي عن ناموسه ناموس الإسلام المقدس؟

أليس أليق بأسرار السجدة على الأرض السجود على تربة فيها سرّ المنعة والعظمة والكبرياء والجلال لله جل وعلا، ورموز العبودية والتصاغر دون الله بأجلي مظاهرها وسماتها؟

أليست أحق بالسجود عليها تربة فيها بينات التوحيد والنفاني دونه؟ تدعو إلى رقة القلب، ورحمة الضمير والشفقة والتعطف؟.

أليس الأمتل والأفضل اتخاذ المسجد من تربة تفجرت في صفيحها عيون دماء اصطبغت بصبغة حب الله، وصبغت على سنة الله ورسوله وولائه المحض الخالص؟ وليس اتخاذ تربة كربلاء مسجداً لدى الشيعة من الفرض المحتم، ولا من واجب الشرع والدين، ولا مما أزمه المذهب، ولا يفرق أي أحد منهم منذ أول يومها بينها وبين غيرها من تراب جميع الأرض في جواز السجود عليها، خلاف ما يزعمه الجاهل بهم وبآرائهم، وإن هو عندهم إلا استحسان عقلي ليس إلا، واختيار لما هو الأولى بالسجود عليه لدى العقل والمنطق والاعتبار فحسب كما سمعت.

وكثير من رجال المذهب يتخذون معهم في أسفارهم غير تربة كربلاء مما يصح السجود عليه كحصير طاهر نظيف يوثق بطهارته، أو خمرة مثله ويسجدون عليه في صلواتهم^(١).

مضافاً إلى ذلك كله ما ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من الاهتمام بهذه التربة الطيبة الزاكية في

(١) سيرتنا وسنتنا للأميني: ١٥٨ - ١٦٧.

النصوص الصحيحة الكثيرة في التبرك بها وتقبيلها وتفضيل السجود عليها.

لذا لم تقتصر التربة الحسينية من حيث المفاضلات وحدها، بل أخذت رمزاً آخراً لقضية كبيرة في الإسلام ذات أبعاد عقائدية وتربوية تستمد قيمتها من نهضة الإمام الحسين وولودها.

الخلاصة:

يقول الدكتور عبد الله القمي سكرتير جمعية التقريب بين المذاهب: (أجمع علماء الشيعة أنه يصح للمسلم أن يسجد على مطلق الأرض وعلى كل نبات- شريطة أن لا يكون مأكولاً- مثل الحصير أو ورقة بيضاء، أو ملبوساً (مثل القطن) وهذا الرأي هو ما يقارب الفقه المالكي.

وعند سؤال الإمام جعفر الصادق (ع) عما يجوز السجود عليه وما لا يجوز قال: لا يجوز السجود إلا على الأرض أو على ما أنبتت الأرض إلا ما أكل أو لبس، وبسؤاله ما العلة في ذلك؟ قال: لأن السجود خضوع لله ﷻ فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل ويلبس، لأن أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عز وجل لا ينبغي أن يضع جبهته

في سجوده على معبود الدنيا الذين اغتروا بغرورها^(١)، وهي تذكرة للإنسان أنه من التراب وإلى التراب يعود). ويقول: (يستغرب البعض لرؤية الشيعة تسجد على لبنة من التراب- تعرف في مصر بالشفقة- وذهبت بعض الظنون إلى أنهم يسجدون لها. إلا إنه من البديهي أن هناك فرقاً بين السجود على الشيء والسجود له- فلو كانوا يسجدون لها لسجدوا على غيرها- ولا يضعوا جباههم عليها، وإلا كان الساجد على البساط ساجداً له، والساجد على السجاد عابداً له!!).

(١) مستمسك العروة الوثقى، للسيد محسن الحكيم، ج ٥.